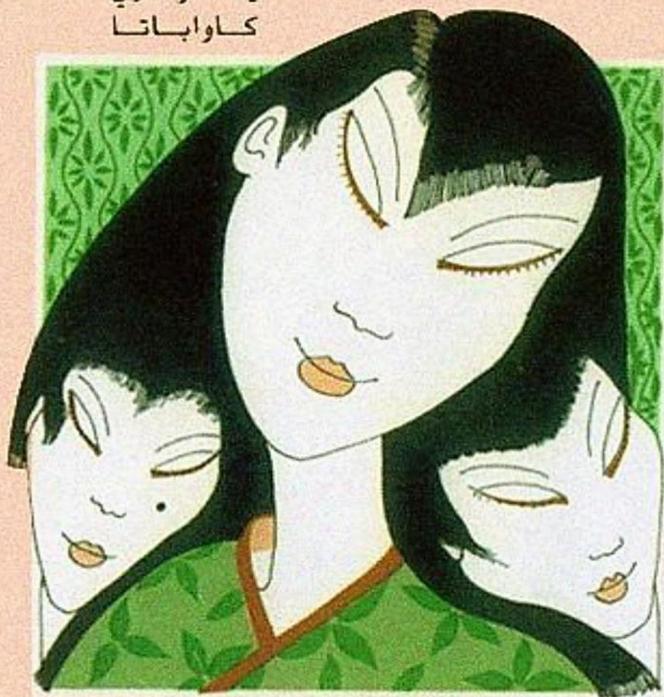
الجميلات النائمات

ياسوناري
كاواباتا



ترجمة : ماري طوق

ياسوناري كاواباتا

الجميلات النائمات

رواية

ترجمة: ماري طوق

دار الآداب - بيروت

الجميلات النائمات
ياسوناري كاواباتا/روائيّ يابانيّ
الطبعة الثانية عام 2006

دار الآداب للنشر والتوزيع
ساقية الجنزير ـ بناية بيهم
ص.ب. 4123-11
بيروت ـ لبنان
هاتف: 861633 (01) - 861632(03)
فاكس: 009611861633
e-mail: d_aladab@cyberia.net.lb
Website: www.adabmag.com

عن المؤلف

وُلد ياسوناري كاواباتا في ١١ حزيران ١٨٩٩ في أوزاكا. لاحقته المآسي منذ أعوامه الأولى. فُجع بموت والديه وأخته الوحيدة وجدّته. لم يعد هناك سوى الجدّ ليرعى الطفل الصموت منذ ذلك الوقت. ولكن الجدّ كان أعمى ومريضاً وعجوزاً فمات هو أيضاً بدوره. كل ذلك وكاواباتا لم يتجاوز الخامسة عشرة من عمره.

البديل الوحيد هو الأدب إزاء هذا الواقع المؤلم. سيداعب كاواباتا بحنان وتأثر ـ كما سيفعل لاحقاً العجوز ايغوشي في صراعه مع الجميلات الناشئات ـ قبور أحبائه. عمَّ بإمكانه أن يتكلّم إن لم يكن عن الموت؟ حقيقة الموت التي عاشها بحدّة منذ أعوامه الأولى وأعاد احياءها في «يومياتي الحميمة في سن السادسة عشرة» (١٩٥٢)؟

ترك كاواباتا المدينة بعد ذلك بوقت قليل، وبدت له الوحدة الخيار الوحيد المحتمل. خلال هذا الوقت، لم يتوقّف عن الكتابة ليخفي حزنه ويعطي لحياته معنى، أو بكل بساطة، ليحصل على لحظات من السعادة. نشر بنجاح روايته الأولى

«راقصة ايزو» في سنة ١٩٢٦، ويبدأ يكتشف جماليته الخاصة ويتخلّص من المرارة محاولاً التواصل برهافة مع كل ما يحيط به. وهكذا نما لديه نوع من الحكمة رافقه حتى الموت...

في انتظار ذلك، ضاعف جهوده ونشاطاته، أسّس مجلات أدبية وأطلق حركة «الأحاسيس الجديدة». تمرّس في الرواية والأقصوصة والمقالة وحتى في السينما. ابتدع نوعاً أدبياً جديداً وهو «الرواية المصغّرة».

تتابعت عندئذ الكتب التي جعلت منه الروائي الأعظم في اليابان: «بلد الثلج» (١٩٤٨)، «سرب عصافير بيضاء» (١٩٥٢)، «هدير الجبل» (١٩٥٤)، «الجميلات النائمات»... ومن كتاب إلى آخر نتعرّف إلى الوحدة والموت والحب والجنس، وفي الخلفية دائماً ذكريات مرهفة عن حدائق ومشاهد وفصول. ارتدى أسلوبه على مرّ السنوات طابعاً بسيطاً بعيداً عن الزخرفة وشبه حيادي، فالكاتب هو الذي يراقب عن مسافة الضجر الهش للحياة وفي سلبية هادئة. هل وجد كاواباتا الهدوء أخيراً في ١٦ نيسان ١٩٧٢؟ هل يجدر التحدّث عن حكمة مطلقة أم عن جحيم فكري عندما انزوى الكاتب، الذي كسب ملايين القراء ونال جائزة نوبل سنة ١٩٦٨، في شقة صغيرة ضيّقة ومشؤومة ليموت؟ انتحار دقيق ومتوحّد يؤمّن له الدخول إلى عالم آخر، ولكن أي عالم؟

«إنه لمن السهل الدخول إلى عالم بوذا، لكن من الصعب

الدخول إلى عالم الشياطين. . . كل فنان يتوق إلى الحقيقة والخير والجمال كهدف سامٍ لسعيه لا بدّ أن يهجس بالرغبة في مواجهة هذا الدخول الصعب إلى عالم الشياطين. وهذا الهاجس ظاهراً كان أم مستتراً يتأرجح بين الخوف والرجاء».

في أي عالم سيدخل ايغوشي العجوز عند اجتيازه عتبة «الجميلات النائمات»؟ هذه الرواية المنشورة سنة ١٩٢٦ تصوّر لنا سعي العجائز المصابين في رغباتهم. داخل منزل غامض، يأتون لقضاء الليل إلى جانب مراهقة نائمة، لكن الفتاة لا تستسلم لنوم طبيعي بل تنام تحت تأثير مخدر الليل كلّه دون توقف، حتى انها تجهل مع من قضت ليلتها. يلج هؤلاء العجائز أو «الزبائن الذين لا يجلبون المتاعب» الغرف السرية للنائمات كأنهم يدخلون إلى معبد بعض الكاهنات. وهناك، إلى جانب الدمى الحيّة، ربما يستعيدون وهم شبابهم، وهم حيوية ضائعة ومغامرة أخيرة «كمن يضاجع بوذا خفيّاً». وهكذا يجد هؤلاء العجائز غير القادرين على التصرّف كرجال فرصتهم الأخيرة، هبة من الحياة، دون خجل أو انزعاج أو ذنب.

بالنسبة لايغوشي، ستكون الليالي الخمس التي أمضاها في غرفة الشهوات فرصة لتذكّر نساء حياته والغرق في تأمّلات طويلة للوصول، من يدري، عند عتبة الموت الطفولة والتكفير عن ذنوبه.

مقدمة

بقلم غابرييل غارسيا ماركيز

كانت جميلة، ممشوقة، ذات بشرة غضّة بلون القمح وعينين لوزيتين خضراوين، وشعر أسود منسدل حتى الكتفين، تلفّ وجهها هالة من الجمال الشرقي القديم الذي يبدو متحدّراً من بوليفيا أو من الفيليبين. كانت متأنّقة بذوق مرهف: سترة من الأوس، قميص حريري بأزهار صغيرة، بنطلون من الكتّان الخالص، وحذاء واطىء بلون نبتة الجهنميّة. «ها هي أجمل امرأة رأيتها في حياتي»، فكّرت وأنا أرى الفتاة تنتظر ركوب الطائرة المتجهة إلى نيويورك من مطار شارل ديغول في باريس. . أفسحت لها بالمرور قبلي، وعندما وصلت إلى المقعد الذي عُيِّنَ لي على بطاقة الركاب، وجدتها جالسة على المقعد المجاور. توصّلت إلى التساؤل وأنا مقطوع الأنفاس: هذا التجاور اللامتوقع إلى أيّ منّا سيحمل التعاسة؟

جلَسَتْ، كمن تعوَّد الأمر من سنين عديدة، واضعة كل شيء في مكانه بعناية فائقة، حتى باتت مساحتها الشخصية مرتّبة كبيت مثالي حيث يوجد كل شيء، في متناول اليد. قدَّم المضيف الشامبانيا متأهِّلاً بالركّاب حين كانت منصرفة إلى تنظيم أمورها.

رفضت الشمبانيا وحاولت شرح شيء ما، بفرنسية ركيكة. عندها تحدّث المضيف إليها بالإنكليزية فشكرته بابتسامة مشعّة، ثم طلبت منه كأس ماء وأضافت أنها تود ألاّ يوقظها أحد مهما كان الأمر أثناء الطيران. بعد ذلك فتحت حقيبة كبيرة مربّعة بزوايا نحاسية كتلك التي على صناديق جدّاتنا وابتلعت قرصين ذهبيين من علبة فيها أقراص كثيرة أخرى من مختلف الألوان. كانت تقوم بكل شيء بطريقة منتظمة ودقيقة كأن لا شيء غير متوقع حدث معها مذ ولدت.

وأخيراً، وضعت الوسادة في فجوة عند نافذة الطائرة وتدثّرت بالغطاء حتى خصرها، دون أن تخلع حذاءها. استوت جانبياً في المقعد في وضع شبه جنيني، ونامت دفعة واحدة دون تنهيدة، دون أدنى تغيير في وضعها خلال الساعات السبع المرعبة في الطائرة والدقائق الاثنتي عشرة اللامتناهية نتيجة التأخر الذي استغرقه الاقلاع نحو نيويورك.

كنت قد اعتقدت على الدوام أن لا شيء في الوجود يفوق جمال امرأة جميلة، بات مستحيلاً أن أفلت ولو لدقيقة من سحر هذا المخلوق الخرافي النائم إلى جانبي. كان نومها ثابتاً للغاية حتى اني خشيت أن تكون قد تناولت أقراصاً لتموت بدل النوم. تفحصتها عدة مرّات، سنتمتراً سنتمتراً، كانت علامة الحياة الوحيدة التي لاحظتها هي ظلال الأحلام العابرة فوق جبينها كغيوم فوق الماء. كانت تضع حول عنقها عقداً رفيعاً جداً يكاد

لا يُرى فوق بشرتها الذهبية. كانت أذناها رائعتين وغير مثقوبتين. وكانت تضع خاتماً في يدها اليسرى. ربما أنها لم تكن تبدو قد تجاوزت الثانية والعشرين، عزّيت نفسي بفكرة أن هذا الخاتم ليس خاتم زواج بل حلية خطوبة عابرة وسعيدة. لم تكن متعطّرة: بل كان يفوح منها لهاث لا يمكن أن يكون شيئاً آخر سوى الرائحة الطبيعية لشبابها. «أنت عبر نومك والمراكب عبر البحار»، فكّرت على علو عشرين ألف قدم فوق المحيط الأطلسي محاولاً أن أتذكّر بالترتيب السونيتة التي لا تنسى لجيراردو دييغو. «معرفة أنك تنامين، واثقة، أكيدة، أنت، انحناءة نسيان وفية، خطأ صافياً قريباً جداً من ذراعيّ المضمومتين». كان وضعي شبيهاً جداً بالسونيتة حتى أني خلال نصف ساعة استرجعتها في ذاكرتي حتى النهاية: أي انسحاق راعب لساكن الجزيرة، أنا المتأرّق المجنون، على الشواطىء الصخرية، المراكب عبر البحار، أنت عبر نومك». لكني خلال خمس ساعات من الطيران تأمّلت فيها الجميلة النائمة، أدركت بسرعة وبقلق منزوع من المستقبل أن وضعي النعيمي لم يكن شبيهاً بسونيتة جيراردو دييغو، بل بعمل أدبي رئيس في الأدب المعاصر وهو «منزل الجميلات النائمات» للياباني ياسوناري كاواباتا.

اكتشفت هذه الرواية عبر طريق طويل ومختلف ولكن يتفق على كل حال مع جميلة الطائرة النائمة. منذ عدة سنوات، اتصل بي آلان جوفروا بالهاتف ليقول لي إنه راغب في تقديمي إلى كتاب يابانيين، أتوا لزيارته. كل ما كنت أعرفه آنذاك عن الأدب

الياباني، باستثناء القصائد التعيسة أيام البكالوريا، لا يتعدّى بضع أقاصيص لجونيشيرو تانيزاكي مترجمة إلى القشتالية. في الحقيقة، كل ما كنت أعرفه بطريقة أكيدة عن الكتّاب اليابانيين أنهم انتهوا كلهم إلى الانتحار. وقد سمعت عن كاواباتا للمرة الأولى عندما نال جائزة نوبل في سنة ١٩٦٨، وحاولت عندها أن أقرأه قليلاً ولكن سرعان ما أصابني النعاس. بعد ذلك بقليل بقر أمعاءه بسيف طقوسي، تماماً كما فعل روائي آخر مميّز وهو أوزاما دازاي سنة ١٩٤٦، بعد عدة محاولات فاشلة. قبل كاواباتا بسنتين وكذلك بعد عدة محاولات فاشلة قتل الروائي الأكثر شهرة في الغرب يوكيوميشيما نفسه على طريقة الهاراكيري الكاملة، بعدما وجّه خطبة وطنية إلى جنود الحرس الامبراطوري. إذاً عندما اتصل بي الآن جوفروا عبر الهاتف، كان أول شيء رجع إلى ذاكرتي هو عبادة الموت عند الكتّاب اليابانيين. قلت له: «أنا آتٍ بكل سرور، شرط ألّا ينتحروا». والحقيقة أنهم لم ينتحروا، بل أمضينا ليلة ساحرة فهمت خلالها أنهم جميعاً مجانين. كانوا مقتنعين هم أنفسهم بذلك. قالوا لي: «لذلك كنا نود التعرّف إليك». وأقنعوني في النهاية أن القرّاء اليابانيين يعتبرونني كاتباً يابانياً..

ورغبة مني في فهم ما أرادوا قوله لي، ذهبت في صباح اليوم التالي إلى مكتبة مختصّة في باريس واشتريت جميع الكتب المتوفرة هناك لـ: شوزاكو اندو، كنزبوروأو، يازوشي اينو، رنوزوكي أكوتا غاوا، مازوجي ايبوري، أوزامو دازاي، هذا ما عدا

الكاتبين البديهيين كاواباتا وميشيما. لم أقرأ شيئاً آخر خلال سنتين، ولا أزال مقتنعاً حتى الآن بأن شيئاً ما يجمع الروايات اليابانية برواياتي، شيئاً ما لا أستطيع أن أفسِّره ولم أحسّ به في حياة البلاد حين قمت برحلتي الوحيدة إلى اليابان، ولكن هذا الشيء يبدو لي أكثر من جلي.

على كل حال، الكتاب الوحيد الذي وددت لو أكون كاتبه هو «منزل الجميلات النائمات» لكاواباتا، الذي يحكي قصة منزل غريب في ضواحي طوكيو، يتردَّد إليه بورجوازيون يدفعون أموالاً طائلة للتمتع بالشكل الأكثر نقاء للحب الأخير: قضاء الليل وهم يتأمَّلون الفتيات الشابات الأكثر جمالاً في المدينة واللواتي يرقدن عاريات تحت تأثير مخدِّر إلى جانبهم في السرير. لا يملكون حق إيقاظهن ولا لمسهن. ولا يحاولون على أية حال لأن الاكتفاء الأكثر صفاء لهذه المتعة الناجمة عن الشيخوخة هو إمكانية الحلم إلى جانبهن.

لقد عشت هذه التجربة مع الجميلة النائمة في الطائرة المتجهة إلى نيويورك، غير أن ذلك لم يمتعني. على العكس، الشيء الوحيد الذي تمنّيته خلال الساعة الأخيرة من الطيران هو أن يوقظها المضيف لأتمكّن من استرجاع حريتي أو ربما شبابي. لكن ذلك لم يحدث. ذلك أنها استيقظت من تلقاء نفسها عندما لامست الطائرة الأرض. تأهّبت ونهضت تراقبني. كانت الأولى التي خرجت من الطائرة لتضيع بين الجموع. تابعت على الطائرة نفسها طريقي إلى مكسيكو، مجترّاً دفعات الحنين الأولى لجمالها

إلى جانبي على المقعد الذي لا يزال فاتراً إثر نومها، دون أن أتمكّن من أن أنتزع من رأسي ما قاله الكتّاب المجانين عن كتبي في باريس، قبل أن تحط الطائرة، وعندما قدموا لي بطاقة النزول، عبّأتها بنوع من المرارة. المهنة: كاتب ياباني. العمر: اثنان وتسعون عاماً.

غابرييل غارسيا ماركيز

١٩٨٢

I

«وأرجو منك أن تتجنّب المضايقات السمجة لا تحاول وضع أصابعك في فم الصغيرة النائمة! هذا غير لائق!» أوصت المضيفة ايغوشي العجوز.

كان هنالك غرفتان في الطابق الأول، الغرفة ذات البسط الثمانية حيث يتبادل إيغوشي الحديث والمرأة، والغرفة المجاورة وهي غرفة للنوم على الأرجح. كما أن الطابق الأرضي، الذي رآه وهو يمر، لا يحتوي على غرفة استقبال. المنزل إذاً غير جدير بأن يسمّى فندقاً. فضلاً عن ذلك، ليست هناك أية لافتة تشير إلى أنه نزل. لعلّ سرّيّة هذا المنزل تمنع على كل حال مثل هذه العلنيّة. كان السكون مخيّماً. عدا المرأة التي وافت الرجل العجوز عند البوابة المقفلة بالمزلاج والتي يتحدث إليها الآن، لم يلحظ حسّاً لمخلوق. لم يكن في استطاعة إيغوشي الذي يزور المكان للمرة الأولى، أن يعرف ما إذا كانت هذه المرأة مديرة المنزل أم مجرّد موظفة. مهما يكن من أمر، فأولى بالزائر أن يتحاشى دون شك طرح أسئلة غير ضرورية.

كانت المرأة أربعينية، ضئيلة وصوتها فتياً بنبرات كأنها ملطّفة

عمداً. كانت تحرُك شفتيها الرقيقتين دون أن تفتحهما، متحاشية النظر إلى وجه محدِّثها. ثمة بريق في حدقتيها الشديدتي السواد يخمد ريبة الآخر، بل أكثر من ذلك، إلفة هادئة، كأن أي ارتياب من جهتها مستبعد. كان الماء يغلي في المغلاة الموضوعة فوق موقد من أحطاب البارلونيا، وقد سكبت المرأة الماء لتنقع الشاي. كان الشاي الفريد بنوعيته وتحضيره مدهشاً فعلاً في مثل مكان كهذا وظرف كهذا، الأمر الذي أراح إيغوشي العجوز. وكانت لوحة لكاواي جيوكودو في «التوكونوما» مُعلَّقة، وهي دون شك نسخة لمنظر جبلي بألوان خريفية دافئة. لا شيء يشير إلى أن غرفة البسط الثمانية يمكن أن تخفي أمراً ما غير عادي.

«لا تحاول تنبيه الصغيرة من نومها. مهما فعلت لإيقاظها فهي لن تفتح عينيها أبداً... إنها مستسلمة لنوم عميق ولا تنتبه لأي شيء»، ردَّدت المرأة.

«ذلك أن الفتاة تنام باستمرار وهي تجهل كل شيء من البداية حتى النهاية... لا تشغل بالك...».

عبرت ظنون شتّى ذهن إيغوشي العجوز دون أن يفصح عن أيّ منها.

«الفتاة جميلة! وفضلاً عن ذلك فهي لا تستقبل هنا إلا زبائن لا يجلبون المتاعب...».

وكي يحوِّل إيغوشي نظره عنها، التفت إلى ساعة يده.

ـ «كم الساعة الآن؟

ـ الحادية عشرة إلا ربعاً!

ـ تأخّر الوقت! الأسياد العجائز يأوون باكراً ويستفيقون باكراً حسب ما يبدو. إذاً، ساعة تشاء!...».

لمّا قالت المرأة ذلك نهضت وأدارت المفتاح في الباب المؤدي إلى الغرفة المجاورة. هل هي عسراء؟ على أية حال، كانت قد استخدمت يدها اليسرى. هذا أمر غير ذي بال، ولكن إيغوشي لاحق حركات المرأة التي تدير المفتاح والتقط أنفاسه. أحنت المرأة رأسها داخل شق الباب وألقت نظرة على الغرفة المجاورة. كان شكلها من الخلف عادياً جداً، غير أن إيغوشي وجده غريباً. ثمة عصفور غريب عند عقدة حزامها. لماذا خُصّ هذا العصفور المنمنم بعينين وقدمين واقعيتين؟ ليس في هذا العصفور ما يقلق بالطبع، وهو ليس سوى رسم أخرق، لكن ما يمنح شكل المرأة طابعاً مقلقاً، هو هذا العصفور بالذات. كان لون حزامها أصفر فاتحاً، أبيض تقريباً. بدت الغرفة المجاورة غارقة في العتمة.

أغلقت المرأة الباب من جديد دون أن تدير المفتاح وألقته على الطاولة أمام إيغوشي. لم يكن في كلامها ما يشير إلى نتيجة تحرّيها وبقيت نبراتها هي هي.

«هوذا المفتاح. خذ راحتك قدر ما تشاء. إذا اتفق ولم تستطع النوم فستجد منوّماً قرب سريرك.

ـ هل أجد عندك بعض المشروبات؟

ـ لا. نحن لا نقدِّم كحولاً.
ـ حتى ولا قليلاً من الساكي(*) للنوم؟
ـ لا.
ـ الصبيّة موجودة في الغرفة المجاورة، أليس كذلك؟
ـ هي الآن غارقة في النوم وفي انتظارك.
ـ آه صحيح؟».

انتفض إيغوشي قليلاً. متى أُدخلت هذه الفتاة إلى الغرفة المجاورة؟ كم من الوقت مضى عليها وهي نائمة؟ إذا كانت المرأة قد فتحت الباب قليلاً وألقت نظرة، فهذا على الأرجح لتتأكد من أن الفتاة نائمة. أن تكون الفتاة في انتظاره وهي مستسلمة للنوم، ولن تفيق، أمر علمه من صديق عجوز كان يتردد إلى المنزل. الآن وقد وجد هو فيه، فقد بدا له الأمر غير معقول.

«هل تريد أن تبدِّل ثيابك هنا؟» بدت المرأة مستعدة لمساعدته. لم يحر إيغوشي جواباً.

«يسمع صخب الأمواج. والريح...
ـ صخب الأمواج؟
ـ نوماً هنيئاً» قالت المرأة وانسحبت.

وإذ بقي إيغوشي وحيداً، أجال النظر في غرفة البسط الثمانية البريئة وغير الغامضة. توقَّف نظره عند باب الغرفة المجاورة.

(*) الساكي: مشروب كحولي ياباني يصنع من الأرز المخمَّر.

باب من خشب الكريبتومير عرضه مقدار نصف منصبة. لا يبدو أنه يرقى إلى الفترة التي بني فيها هذا المنزل بل أُضيف إليه لاحقاً. ونظر بانتباه أكثر: من المحتمل أن تكون هناك في الأصل ألواح متحرِّكة مكان الفاصل بين الغرفتين ولكنها أبدلت فيما بعد بهذا الفاصل لصيانة غرفة «الجميلات النائمات». كان دهان هذا الفاصل من لون المنزل نفسه ولكنه بدا أحدث عهداً.

تناول إيغوشي المفتاح الذي تركته المرأة وهي تغادر. إنه مفتاح عاديّ. إمساك المفتاح يعني التهيؤ للدخول إلى الغرفة الأخرى، إلا أن إيغوشي لم ينهض البتة. كان صخب الأمواج شديداً كما ألمحت المرأة. كأنها تلطم أسفل شير شاهق وكأن هذا البيت قائم على حرف الشير. كان دويّ الريح ينذر بقدوم الشتاء. لم يكن إيغوشي العجوز يعرف إذا ما كان إحساسه بالريح على هذا النحو عائداً إلى هذا البيت أم إلى قلبه. على أية حال لم يكن الطقس بارداً رغم وجود منقل واحد. ومناخ هذه الناحية حارّ. لا شيء يشير إلى أن الريح تبعثر أوراق الأشجار. كان إيغوشي قد وصل في ساعة متأخرة من الليل، فلم يستطع تمييز الأمكنة ولكنه أحسّ برائحة البحر.

بعد عبوره، لمح حديقة فسيحة نسبة إلى هذا المنزل، مع بضع شجرات باسقات من الصنوبر والقيقب. كانت إبر الصنوبرات السوداء تنتصب بحيوية عبر السماء المعتمة. لا بدّ وأن المنزل كان قديماً لقضاء الإجازات.

أشعل إيغوشي سيجارة وهو يمسك المفتاح بيده. أخذ منها نفساً أو نفسين، ثم سحق رأسها المشتعل بالكاد في المنفضة. تناول على الفور سيجارة أخرى وأخذ وقته لإكمالها. ودَّ لو يسخر من هذا الانفعال الطفيف، ولكن شعوراً منفراً بالفراغ اجتاحه فوق ذلك. كان إيغوشي يلجأ عادة إلى قليل من الكحول لينام. كان نومه خفيفاً وعرضة للكوابيس. لقد حكت شاعرة، ماتت على إثر سرطان وهي لم تزل شابة، عن ليالي الأرق في إحدى قصائدها قائلة:

هوذا الليل يخبّىء لي
ضفادع وكلاباً ميتة وغرقى.

كان إيغوشي قد حفظ هذين البيتين ولم يعد في وسعه نسيانها. هذه المرّة أيضاً تذكّر القصيدة وتساءل هل الفتاة النائمة أو التي نوّمت في الغرفة المجاورة تنتمي إلى هؤلاء الغرقى؟ وهذا التفكير جعله متردّداً في النهوض لموافاتها. أيّاً يكن الأمر، فما دامت غارقة في غيبوبة من النوم العميق غير الطبيعي، فإن سحنتها كسحنة المخدرين داكنة، وعيناها محاطتان بالزرقة، وأضلاعها بارزة وجسدها كلّه نحيل وضامر كخشب يابس. أم لعلّها أيضاً فتاة مترهّلة، باردة ومنتفخة، أم أن لثتها زرقاء وغير سليمة ويتسرّب منها غطيط خفيف؟ لقد مرّ إيغوشي بطبيعة الحال خلال سنواته السبع والستين بليالٍ مزعجة مع بعض النساء. وكانت خيباته من النوع الذي لم يتمكن من نسيانه. بيد

أن هذه الخيبات لم تكن عائدة بالتحديد إلى بشاعة جسدية بل إلى تحوّل تاعس في حياة هؤلاء النساء. وإيغوشي لا يشعر بأية رغبة الآن في معاناة خيبة جديدة مع امرأة. هذه هي الأفكار التي راودته عند اللحظة الحاسمة لوجوده في هذا المنزل. هل هناك ما هو أفظع لعجوز يتهيأ لقضاء ليلة بأكملها قرب فتاة ستنام الوقت كله دون أن تفتح عينيها؟ أيكون مجيء إيغوشي إلى هنا اكتشافاً لهول الشيخوخة المطلق؟

«زبائن لا يجلبون المتاعب»، قالت المرأة. في الحقيقة، قد يكون جميع الذين يترددون إلى هذا المنزل «زبائن لا يجلبون المتاعب». الرجل الذي دلَّ إيغوشي على المنزل كان طاعناً في السنّ وفي عداد هؤلاء، أي أنه لم يعد رجلاً. لم ترمقه المضيفة التي اعتادت استقبال عجائز من هذا الصنف بأية نظرة شفقة ولا أظهرت ناحيته أي ارتياب. لم تكن تعرف أن إيغوشي العجوز، وبفضل تمرسه الدائم في اللذات، لم يصبح بعد ما تدعوه المرأة «زبوناً لا يجلب المتاعب»، ولكن بإمكانه أن يصير كذلك بإرادته الشخصية ووفقاً لمزاجه الآني أو للمكان، أو للشريكة أيضاً. فكّر: ها إن هول الشيخوخة قد بدأ يتعقّبه، وليست تعاسة هذا المنزل ببعيدة كثيراً، وليست رغبته في المجيء إلا دلالة على ذلك. لهذا السبب، لم يكن إيغوشي يفكّر في انتهاك المحرّمات الفظيعة أو المحزنة التي تفرضها مثل هذه الأمكنة على العجائز. بالإمكان تسمية هذا المنزل دون شك نادياً سرّياً تؤلّف أعضاءه قلّة من العجائز. لم يكن في نية إيغوشي أيضاً لا أن يشي بسيّئات

هذا النادي ولا أن يخالف عاداته. لكن الفضول الذي لم يقم بتأثيره اللازم، كان يفضح منذ الآن ارتباك الشيخوخة!

«ثمة زبائن يقولون إنهم رأوا أحلاماً جميلة أثناء نومهم. وآخرون تذكّروا أيام الشباب».

عادت كلمات المرأة إلى ذهن إيغوشي العجوز. نهض بابتسامة مريرة على وجهه مسنداً يده إلى الطاولة وفتح الباب المؤدّي إلى الغرفة المجاورة.

«آه!»

ما أثار عجب إيغوشي هو الستارة المخملية القرمزية. كان لونها في الضوء المنتشر يبدو أكثر عمقاً لدرجة أننا نشعر بوجود منطقة ضوء رقيقة أمام الستارة. ولوج الغرفة كما العبور إلى عالم خيالي. كانت الستارة تلف الغرفة من الجهات الأربع، والباب الذي دخل منه إيغوشي مغطى هو أيضاً بالستارة التي تجعدت حافتها في هذا المكان، أقفل إيغوشي الباب بالمفتاح ثم أزاح الستارة ونظر إلى الفتاة النائمة. لم يكن نومها مصطنعاً، فبوسعه سماع تنفسها الذي يدل دون شك على نومها العميق. كتم الرجل أنفاسه أمام الجمال غير المتوقع للفتاة. لم يكن جمالها الشيء الوحيد غير المتوقّع، بل فتوّتها أيضاً. كانت مستلقية على جانبها الأيسر، وجهها مكشوف قبالته وباقي جسدها غير مرئيّ. ولكنها على الأرجح لم تبلغ العشرين بعد. كما لو أن قلباً جديداً خفق بأجنحته في صدر إيغوشي.

كان معصم الفتاة الأيمن بارزاً وذراعها اليسرى تبدو ملتوية تحت الغطاء. أما اليد اليمنى فمتكئة فوق الوسادة على طول الوجه المغمض العينين؛ الإبهام وحده شبه مختفٍ تحت خدّها ورؤوس أصابعها المرتخية من النوم مثنية بخفّة إلى الداخل، لكن ليس إلى درجة عدم رؤية طيّة المفاصل الناعمة. كان التلوّن الزهري للدم الحار يصعد من ظاهر اليد حتى رؤوس الأصابع. وكانت يدها بيضاء ناعمة.

«هل أنت نائمة؟ ألن تفيقي؟»

قال إيغوشي العجوز ذلك كمبرِّر للمس يدها، ثم أخذها كلها في راحته وحاول هزّها بخفّة. إنّ الفتاة لن تستيقظ، وهذا أمر يعرفه جيداً. نظر إلى وجهها وهو ما برح يضغط على يدها، متسائلاً أي نوع من الفتيات بإمكانها أن تكون؟ لم تشوّه حاجبيها المساحيق بعد. أهدابها المتلاصقة رائعة. وتنشّم عبير شعرها.

لوقت طويل، بدا صخب الأمواج أكثر قوة لأن قلب إيغوشي كان مفتوناً بالفتاة. مع ذلك خلع ملابسه بعزم. عندها فقط أدرك أن إضاءة الغرفة آتية من فوق، ثم رفع بصره: هناك في السقف فتحتان تبثّان نور المصابيح الكهربائية التي يحجبها الورق الياباني. هل الإضاءة كانت متلائمة مع المخمل القرمزي؟ وانعكاس النور على المخمل هل هو الذي يمنح بشرة الفتاة هذا الجمال الخرافيّ كروئيا؟ حاول إيغوشي أن يفكر في ذلك بهدوء بالرغم من اضطرابه. لكن ليس انعكاس المخمل هو الذي

يلوّن وجه الفتاة. لقد أخذت عيناه تعتادان شيئاً فشيئاً على إضاءة الغرفة التي كانت قوية بالنسبة لإيغوشي المعتاد دائماً على النوم في العتمة. قد لا يكون إطفاء ضوء السقف ممكناً. ولاحظ أيضاً أن فرشة السرير مصنوعة من الريش الممتاز.

اندسّ إيغوشي برفق في السرير خيفة أن تستيقظ الفتاة. شعر بأنها عارية. وفوق ذلك، لم تأت بأية ردّة فعل كانقباض الصدر أو ارتعاش الوركين، كأنّها أحسّت العجوز يندسّ إلى جانبها. «مهما كان نومها عميقاً، فيجدر بامرأة شابة أن تستجيب بطريقة غير إرادية على الأقل، ولكن نومها غير طبيعي على أية حال». قال إيغوشي في نفسه وتجمّع كأنه يريد تجنّب أي احتكاك بالفتاة. ضايقت ركبتاها المطويتان قليلاً ساقي إيغوشي. كانت مستلقية على جانبها الأيسر في وضعية غير دفاعية، ركبتها اليمنى تتكىء إلى اليسرى وبارزة فوقها، لكن الركبة اليمنى مرجعة إلى الوراء والساق ممدودة ظاهرياً، عرف ذلك دون أن ينظر. ظهر الكتفان والحوض من زوايا مختلفة بسبب التواء الصدر. لم تكن الفتاة طويلة القامة.

كان النوم يجعلها متخدّرة حتى رؤوس أصابع اليد التي ضغط عليها إيغوشي منذ قليل وهزّها، والتي تدلّت محافظة على الوضع الذي تركها فيه، حين جذب العجوز الوسادة نحوه، تدلّت يد الفتاة. اتكأ إيغوشي إلى الوسادة وتأمّلها. تمتم: «كأنها تنبض بالحياة». ان تكون نابضة بالحياة فهذا مما لا شك فيه، ولكن

تمتمته تعني أنه وجدها ساحرة. ما أن تفوّه بهذه الكلمات حتى احدثت تأثيراً مزعجاً فيه. الفتاة النائمة دون أن تنتبه لشيء، الفاقدة إدراكها من غير أن يتوقف مجرى زمنها الحياتي، ألم تكن غارقة بالمقدار نفسه في هاوية بلا قرار؟ إن هذا لا يجعل منها دمية حية لأنه لا وجود لدمية حية، ولكنهم جعلوها كذلك كي يجنّبوا العجائز الذين لم يعودوا رجالاً أي شعور بالخجل. لا بل هي أحسن من دمية حية لأنها، من يدري، قد تكون الحياة ذاتها لعجائز من هذا الصنف. حياة يمكن لمسها هكذا بكل أمان. كانت يد الفتاة القريبة تماماً تبدو لعيني إيغوشي أكثر نعومة وأكثر جمالاً أيضاً. ملمسها ناعم ولكن لطافة تركيبها تدقّ عن النظر.

كان اللون الزهري الناتج عن دم حار يغدو غامقاً عند رؤوس الأصابع ويبدو على النسق نفسه عند شحمة الأذن البارزة من تحت الشعر. واللون هذا يؤكّد نضارة الفتاة التي ملكت قلب إيغوشي. كانت المرة الأولى التي يتوقّف فيها إيغوشي في هذا المنزل الغامض مدفوعاً بحبّه لكل ما هو غريب. في مقابل ذلك، توصّل إلى أن يتساءل: هل هناك مسنّون أكثر عجزاً منه يجنون من ارتيادهم هذا المنزل مباهج وآلاماً أكثر قوة؟ كان شعر الفتاة مسترسلاً على طبيعته، ربما ترك ينمو كي يتمكّن العجائز من ملامسته بأياديهم. وأسند إيغوشي عنقه إلى الوسادة ورفع شعر الفتاة كاشفاً أذنها. ترك شعرها وراء الأذن ظلاً أبيض. كان عنقها وكتفها كعنق مراهقة وكتفها؛ ليست لها

الاستدارة الممتلئة للمرأة الناضجة. أشاح العجوز عينيه وأجالهما في الغرفة. كانت الملابس التي خلعها منذ قليل موضوعة في السلّة ولم يلحظ ملابس الفتاة في أي مكان. ربما المرأة أخذتها أو لعلّ الفتاة أدخلت إلى الغرفة وهي عارية تماماً. عند هذه الفكرة، أحسَّ إيغوشي بالانزعاج. كان بإمكانه أن يتأمّل جسدها كلّه دون أن يكون مضطراً للشعور بالانزعاج، فهو يعرف أنها نائمة لأجل هذه الغاية بالذات، لكن إيغوشي جذب الغطاء نحو كتفه العارية وأغمض عينيه. كانت رائحة الفتاة تملأ الغرفة، وتصاعدت فجأة رائحة طفولية إلى أنفه. رائحة حليب تفوح من الرضّع. مهلاً! ليس معقولاً أن تكون لدى هذه الفتاة طفلة فأخذ الحليب عند اندفاعه يرشح من صدرها. نظر على سبيل التأكّد إلى جبين الفتاة وخدّها وإلى الخطّ الفتويّ الذي يصل الذقن بالعنق. وبالرغم من أن هذا كافٍ للتيقّن فإنه رفع الغطاء الذي كان قد جذبه نحو كتفيه وألقى نظرة. من البديهي أن شكل ثدييها لا يدل على أنها امرأة مرضعة. لمسها بطرف إصبعه بطريقة خاطفة، لم يكن من أثر لرطوبة. ثم لو أن هذه الفتاة كانت دون العشرين لأمكن القول إن رائحة الحليب لا تزال تفوح منها، إلا أنه لا ينبغي أخذ ما يقال حرفياً. إنه من غير المعقول أن يحتفظ جسدها برائحة الحليب كجسد الطفل. والحقّ أن رائحتها هي فعلاً رائحة امرأة. ولكن إيغوشي أحسَّ عندئذ برائحة رضيع قوية. أتكون هذه هلوسة عابرة للحواسّ؟ ولكن، كيف بإمكان مثل هذه الهلوسة أن تحدث؟ عبثاً تساءل دون أن

يفقه شيئاً؛ ربما طغت ذكرى هذه الرائحة على سطح وعيه إثر خلل مفاجىء فيه. اجتاح إيغوشي شعور من الوحدة ممزوج بالحزن وهو يفكّر على هذا النحو. لا بل أكثر من ذلك، إنها التعاسة الجليدية للشيخوخة. أخلى هذا الشعور المكان للشفقة والحنوّ على هذه الفتاة التي تذكِّر رائحتها بحرارة الشباب. ربما تسرَّب إليه فجأة الادراك الغامض والبارد لذنبه، وأحسَّ العجوز بموسيقى تتصاعد من جسد الفتاة. موسيقى مفعمة حباً. وقد رغب إيغوشي في الفرار وأجال نظره في الحيطان الأربعة، لكن الستارة المخملية تحاصره من جميع الجهات وكأنّ أي منفذ له مستحيل. كان المخمل القرمزي المضاء بالنور المتساقط من السقف ناعماً لا تحرِّكه أية نسمة. لقد أسر الفتاة النائمة والعجوز.

«ألن تفيقي؟ ألن تفيقي؟». أمسك إيغوشي كتف الفتاة وهزَّها ثم رفع رأسها، ومن جديد: «ألن تفيقي؟».

ما دفعه للتصرّف هكذا هو الانفعال تجاه هذه الفتاة، المنبثق من أعمق أعماق كيانه. أن تكون نائمة دون أن تتكلّم إطلاقاً، أن تجهل حتى وجه الرجل العجوز وصوته، باختصار أن تكون هنا كما هي الآن، غير مبالية تماماً بالكائن البشري الموجود قبالتها والذي يدعى إيغوشي، كل ذلك بدا له فجأة أمراً غير محتمل. كان وجوده غريباً عن الفتاة بقسوة. وإذا لم يكن هناك من داع لتفتح عينيها فإن رأسها النائم ملقى بكل ثقله بين يدي

العجوز، وإذا قطبت حاجبيها قليلاً، أليست هذه استجابة حية من جانبها؟ ألقى إيغوشي يده برفق.

لو أن هزّة تكفي لإيقاظ الفتاة، لفقد هذا المنزل عاجلاً غموضه الذي وصفه كيغا العجوز، وهو من دلّ إيغوشي إليه، إنه «كمن يضاجع بوذا خفياً». امرأة لن تستفيق بأية حال هي بالتأكيد للعجائز، «للزبائن الذين لا يجلبون المتاعب»، تجربة ومغامرة وشهوة لا تجلب المتاعب، حكى كيغا العجوز لإيغوشي أن أناساً أمثاله لا يحسّون بالعيش من جديد إلا في تلك اللحظات حيث يجدون أنفسهم بالقرب من امرأة نائمة. أتى ذات يوم لزيارة إيغوشي، وعندما لاحظ شيئاً متساقطاً على أعشاب الحديقة التي أذبلها الخريف، هرع لالتقاطه على الفور والحرج بادٍ عليه. ثمرة عينية من شجرة أوكوبة. كان هناك العديد من الثمار المنتشرة في كل مكان. ولكن كيغا لم يلتقط إلا واحدة منها وأخذ يقلّبها بين يديه وهو يحكي له عن المنزل الغامض. أخبره أنه يرتاد هذا المنزل كلما شعر بأن يأس الشيخوخة بات غير محتمل.

«منذ أمد بعيد فقدت كل أمل في مضاجعة امرأة. ولكن هناك أناس يعدّون نساء يرقدن باستمرار من البداية حتى النهاية».

امرأة غارقة في النوم لا تتحدث عن شيء، لا تسمع شيئاً، أليست لرجل عجوز عاجز منذ الآن عن التصرّف كرجل مع

النساء، قادرة على التحدث عن كل شيء والإصغاء لكل شيء؟ هذه تجربة إيغوشي الأولى مع نساء من هذا النوع. أما الفتاة فلديها بالتأكيد تجارب مع عجائز من هذا الصنف. مستسلمة تماماً، غافلة عن كل شيء، مستلقية هنا بوجهها البريء، غارقة في نوم سباتي، متنفّسة بهدوء. ربما هناك بعض العجائز يلامسون الفتاة في كل جسدها وقد يبكي بعضهم بحرارة على أنفسهم. لكن لن يكون بمقدور الفتاة الانتباه لشيء. عبثاً حاول إيغوشي إقناع نفسه بذلك، وبالمقابل هو غير قادر على المبادرة، حتى انه احتاط كثيراً وسحب يده من تحت عنق الفتاة كأنه يعالج شيئاً هشاً، لكن رغبته في إيقاظها كانت ملحّة في الوقت نفسه.

عندما سحب إيغوشي يده من تحت عنق الفتاة، أدارت رأسها بعذوبة وتبعت كتفاها الحركة وتمدَّدت على ظهرها. حسب إيغوشي أنها ستستيقظ فابتعد عنها. كان لأنف الفتاة وشفتيها المتجهتين إلى أعلى يغمرهما نور السقف، ألق الشباب. رفعت يدها اليسرى وحملتها إلى فمها كأنها ستمتصّ سبّابتها. ربما هذه هي عادة تمارسها عند النوم ولكنها لم تفعل سوى إسنادها بخفة إلى شفتيها. عندها انشرحت شفتاها وبانت أسنانها. ها هي الآن تتنفّس عن طريق فمها بعدما كانت تتنفّس عن طريق أنفها. بدا تنفسها أكثر سرعة. تساءل إيغوشي هل هي تتألَّم؟ ليس الأمر كذلك بالتأكيد، ثم ان شفتيها انشرحتا وكأن ابتسامة تطفو على وجهها. من جديد، كان صخب الأمواج التي تلطم الشير أكثر قرباً من أذن إيغوشي. إذا حكمنا على الدويّ الذي

تحدثه عند تكسّرها فلا بدّ من وجود صخور عند الأسفل. كانت مياه البحر المحبوسة وراء الصخور ترجع بشيء من البطء. فضلاً عن النفس المتصاعد من أنف الفتاة، كان للهاث المتسرّب من فمها رائحة حادة، غير رائحة الحليب. فكّر الرجل العجوز محتاراً عن مصدر هذه الرائحة التي انقضّت عليه فجأة، وتساءل هل رائحة هذه الفتاة رائحة امرأة فعلاً؟

كان لدى إيغوشي حفيد تفوح منه رائحة الرضيع. وقد عبرت صورة الطفل في ذهنه. كانت بناته الثلاث متزوجات وأنجبت كلّ واحدة منهن أحفاداً. لم يتذكّر إيغوشي الوقت الذي كانت تفوح فيه رائحة الحليب من أحفاده فحسب، بل أيضاً أيام حمل بين ذراعيه بناته عندما كنّ رضيعات. أكانت هذه الرائحة رائحة أطفاله الرضّع التي تأجّجت ذكراها فجأة؟ أم هي بالأحرى رائحة الحنوّ الذي يكنّه للفتاة النائمة.

استلقى إيغوشي بدوره على ظهره وحرص على تجنّب أي احتكاك بها، ثم أغمض عينيه. كان يجدر به أن يتناول المنوّم الموضوع قرب السرير. من البديهي أنه أقل فعالية من المنوّم الذي أعطي للفتاة. دون شك، سوف يستيقظ قبلها، وإلا فإن غموض هذا المكان وجاذبيته سيتلاشيان. فتح إيغوشي الظرف الورقي الموضوع قرب سريره، كان فيه قرصان أبيضان. إذا ابتلع واحداً منهما وجد نفسه في حالة ذهول بين الخيال والحقيقة، وإذا ابتلع الاثنين غاص في نوم قاتل. تساءل وهو

بتأمُّل القرصين: أليس هذا هو الحل الأمثل؟ عندئذ عاودته ذكريات مزعجة ومكدِّرة متعلِّقة بالحليب.

«رائحة حليب؟ رائحة الحليب تفوح منك أنت! رائحة طفل صغير!». امتقع وجه المرأة التي كانت تطوي السترة التي خلعها إيغوشي وحدجته بنظرات غاضبة. «لا بدّ وأنه طفلك أنت! حملته بين ذراعيك قبل خروجك من البيت! أجل، هذا هو السبب!».

كانت يدا المرأة ترتجفان بشدّة. هتفت: «آه! هذا شيء مقرف، شيء مقرف!». ثم نهضت ورمت السترة في وجهه. «أنت تثير قرفي! كيف تأتي إليّ بعد أن تحمل طفلك وبالضبط قبل خروجك من البيت!». كان صوتها مرتعشاً وملامح وجهها أكثر رعباً أيضاً. كانت المرأة عشيقته غيشا وكانت تعرف أن لدى إيغوشي زوجة وأولاداً وتتقبَّل ذلك. ولكن رائحة الرضيع أثارت فيها موجة من الغضب والغيرة. ومن ذلك الحين، فسدت العلاقة بين إيغوشي وتلك الغيشا.

الرائحة التي كرهتها الغيشا كانت صادرة عن ابنته الصغرى. فضلاً عن ذلك كانت لديه صديقة قبل الزواج. قرَّر أهل تلك الفتاة مراقبتها عن كثب وأخذت لقاءاتها القليلة طابعاً محموماً. ذات يوم، لاحظ إيغوشي وهو ينزع وجهه عنها نقطة دم تتلألأ عند حلمتها. دهش إيغوشي من ذلك. عندئذ قرَّب وجهه من جديد دون أن يتظاهر بشيء وامتصَّ الدم برفق هذه المرة. لم

تنتبه الفتاة المنتشية لشيء، حين أفاقت من زوغتها، حدَّثها إيغوشي عن الأمر ولكنها أكَّدت له بأنها لم تشعر بأي ألم.

أمر غريب أن تمثّل هذه الذكريات الآن في ذهنه، فهي تعود إلى ماضٍ سحيق. أمر غير معقول أن تثير مثل هذه الذكريات المدفونة في أعماقه فجأة الإحساس بأن هذه الفتاة تفوح منها رائحة الحليب. التحدّث في الواقع عن ماضٍ سحيق، ولكن ذاكرة الانسان وذكرياته لا يمكن وصفها بالقريبة أو البعيدة وفقاً لترتيبها الزمني القديم أو الحديث فحسب. قد تبقى حادثة ترقى إلى الطفولة منذ ستين عاماً في ذاكرتنا بشكل أفضل مما تبقى واقعة البارحة، وتبعث بالصورة الأكثر صفاء وحياة. أفلا يحدث هذا بالضبط حين نشيخ؟ وفوق ذلك، ألا توجد حالات تصوغ فيها أحداث الطفولة الشخصية وتحدّد حياة بأكملها؟ قد يبدو الشيء في ذاته تافهاً، لكن الدم المتلألىء على نهد تلك الفتاة علّمه لأول مرّة أن بإمكان شفتي رجل أن تجرحا أي مكان تقريباً في جسد امرأة. وإذا كان قد تحاشى بعد علاقته معها أن يسيل الدم من أية امرأة كانت، فإن الشعور الذي منحته إياه تلك الفتاة كان هبة قادرة على تنمية القدة الحيوية للرجل. هذا الشعور لم يمح قط حتى اليوم وقد أتمَّ السابعة والستين.

أمر آخر ربما كان تافهاً، حين كان إيغوشي لا يزال في شرخ الشباب، أسرّت له زوجة مدير تنتمي إلى طبقة راقية، وهي امرأة ناضجة ولها سمعة فاضلة، وفوق ذلك لديها علاقات اجتماعية كثيرة:

«في المساء، قبل أن أنام، أغمض عينيّ وأحاول أن أعدّ على أصابعي الرجال الذين يروق لي أن يقبّلوني. أحصيهم على أصابعي، الأمر مسلٍ، وعندما لا أصل إلى العدد عشرة، أحسّ نفسي وحيدة متروكة».

كانت المرأة في ذلك الوقت تشارك إيغوشي رقصة ڤالس. وقد أحسّ بأن المرأة لم تُدْلِ بهذا الاعتراف فجأة إلا لإحساسها بأنه من ضمن الرجال الذين يروق لها تقبيلهم. أرخى عندئذ أصابعه من يد المرأة.

قالت غير مبالية: «إنها فقط مسألة إحصاء...» ثم أردفت: «أنت يا سيد إيغوشي لا تزال في مقتبل العمر، أنت لا تعرف معنى الشعور بالوحدة عند اقتراب النوم. وإذا اتّفق وعانيت ذلك، يكفي أن تقترن بواحدة. ولكن بالمناسبة جرّب على أية حال. هذا بالنسبة لي أنا على الأقل دواءٌ شافٍ أحياناً».

ولما كانت قد تلفّظت هذه الكلمات بلهجة ناشفة، لم يحر إيغوشي جواباً. قالت له إنها فقط تحاول أن تعدّ، ولكن بمقدورنا التصوّر بأنها تستعيد وجوه هؤلاء الرجال وأجسادهم أثناء العدّ، ثم إنه يلزمها بعض الوقت كي تصل حتى العشرة، وربما أيضاً تنتعش هواجسها من جرّاء ذلك. هذا ما فكّر فيه إيغوشي عندما صدم العطر المثير لهذه المرأة التي تخطّت تقريباً سن تألّقها منخريه بقوة. الطريقة التي سوف تتذكّره بها قبل النوم كرجل يروق لها تقبيله شأن من شؤون حرّيتها الحميمة ولا يعني إيغوشي الذي لا

يمكنه فوق ذلك أن يمنعه أو أن يتذمَّر منه. أما أن يصير دون علم منه ألعوبة في ذهن امرأة ناضجة، فقد ترك هذا لديه شعوراً بالقذارة. ولكنه حتى اليوم، لم يستطع نسيان كلمات هذه المرأة. هل كانت تحاول خفية إغواء إيغوشي الشاب أم أنها ابتدعت قصتها لتسخر منه؟ هذا ما ارتاب منه لاحقاً. ولكن بعد مرور وقت طويل، وحدها كلمات هذه المرأة بقيت في ذاكرته. لقد ماتت منذ زمن بعيد ولم يعد إيغوشي يشك في صحة ما قالته. كم مئات من الرجال تخيَّلت قبلاتهم قبل أن تموت؟

كان إيغوشي بدوره، عند اقتراب الشيخوخة وفي الليالي التي يتأخَّر فيها النعاس عن القدوم، يتذكَّر كلمات المرأة ويبدأ بإحصاء النساء، لكنه كان يرفض السهولة ويحلو له، ليس فقط أن يستعرض أولئك النساء اللواتي يروق له تقبيلهن ولكن هؤلاء اللواتي كان على علاقة حميمة بهن. هذه الليلة أيضاً جرّه وهم رائحة الحليب الذي أثارته الفتاة النائمة إلى تذكُّر صديقته القديمة، أو على العكس، قد يكون الدم المتلألىء على نهد صديقته القديمة أثار فجأة وهم رائحة الحليب غير المعقولة عند الفتاة النائمة. لعلَّ إحدى التعزيات المحزنة للعجائز تكمن في الاستغراق بذكرى نساء ينتمين إلى ماضٍ انقضى إلى الأبد، وهم يلامسون جميلة لن تستفيق أبداً من نومها العميق. وشعر إيغوشي بصفاء دافىء ممزوج بالوحدة. كان قد اكتفى بالتحقُّق عبر رؤوس أصابعه بأن ثديي الفتاة لم يكونا رطبين، ولم تخطر له

أية فكرة مزعجة بعد ذلك، كإخافة الفتاة مثلاً عندما تستفيق بعده بوقت طويل فتكتشف دماً على ثديها. بدا له شكل ثدييها جميلاً. عندئذ تساءل العجوز وهو شارد الذهن كيف تسنّى لثدي الأنثى البشرية وحدها من بين جميع الحيوانات أن يتخذ بعد تطوّر طويل، هذا الشكل الرائع. أليس الجمال الذي بلغه نهد المرأة المثال الأبهى لتطور الانسانية؟

ربما ينطبق الأمر ذاته على شفتي المرأة. كان إيغوشي العجوز يحتفظ بذكرى النساء اللواتي يتبرّجن عند النوم واللواتي ينزعن الماكياج، وأيضاً النساء اللواتي تفقد شفاههن، حين يمسحن الحمرة عنها، النضارة وتكتسي بلون كامد وغير صحّي. ولم يستطع أن يميّز في النور الناعم المتساقط من السقف وظلال المخمل الذي يلفّ الغرفة، إذا ما كان وجه الفتاة متبرّجاً بشكل خفيف أم لا، ولكنه كان متأكداً بأنها لم تعقف رموشها. كان للشفتين والأسنان التي استشفّها ألق الصبا وللهاثها النكهة التي تفوح عادة من أفواه الصبايا من غير اللجوء لمضغ مادّة عطريّة. لم يكن إيغوشي يستسيغ الأثداء ذات الحلمات المنتفخة الواسعة والداكنة اللون. أما حلمتا الفتاة فكانتا، على قدر ما أتيح له أن يرى حين رفع الغطاء خلسة عن كتفها، صغيرتين بعد وبلون الدرّاق. ولما كانت مستلقية على ظهرها فبإمكانه أن يسند صدره إليها ويقبّل شفتيها. كانت من النساء اللواتي يروق له تقبيلهنّ. إن إمكانية التصرّف على هذا النحو مع امرأة شابة تمنح بالتأكيد لرجل في سنّ إيغوشي تعزية كبرى وتستحق فعلاً عناء المجازفة.

هـذا ما تخيَّله إيغـوشي بسهولـة، أيضاً تخيّـل البهجـة التي تغمـر العجائز الذين يرتـادون هذا المنـزل، فربمـا كان بينهم أشخـاص مهتـاجون، وبـاستطاعـة إيغوشي تصـوّر تصرّفـاتهم. في مقـابـل ذلك، بدا لإيغوشي جمال الفتاة النائمة غافلة عن كل شيء، نقياً وطاهراً. وإذا لم يكن قد دخل بعد في هذه اللعبة الشائنة، فهذا لأن الفتـاة جميلة في نومهـا. الفرق بـين إيغوشي وبـين العجـائـز الآخرين، هو أنه لا تزال عنده بقية من الرجولة. كان ضروريـاً للعجائز الآخرين أن تكون الفتاة مستغرقة في نوم بـلا قرار. أمـا إيغـوشي فقد حـاول مرتـين حتى الآن أن يوقـظهـا وإن من غـير إصرار. لو أنها فتحت عينيها خلافاً لما هو متوقَّع، لما عرف هـو نفسـه كيف ستكون نـواياه تجـاه الفتاة، ولكنـه سيتصرّف بحنان معهـا. أو بالأحـرى لا، ربما كـان هذا آتيـاً من شعوره ببـطلانه الخاص وخوفه.

«كم هي مستغـرقة في النـوم!»، لاحظ العجوز أن بـإمكـانـه إعفـاء نفسه من تمتمـة هـذه الكلمات، فـأضـاف: «لا يمكن أن يكون نومها أبدياً! حتى هذه الفتـاة، حتى أنا!...»، واثقـاً من أنه سيفيق حياً عند صباح هذه الليلة الغريبة كما عنـد نهاية أيـة ليلة عادية لا أكثر ولا أقل، وأغمض عينيه، فضايقه المرفق المثنيّ للفتـاة التي تسنـد سبـابتهـا إلى شفتيهـا. أمسكهـا إيغـوشي من معصمها ووضع ذراعهـا على خـاصرتها. وفي فعله هـذا، أحسَّ بنبضها فشدَّ عليـه بين سبَّابته وأصبعـه الوسـطى. كان خفقـانه رائعـاً ومنتظمـاً تمـامـاً. وكـان تنفّسهـا هـادئـاً وأبـطأ من تنفّس

إيغوشي. كانت الريح تعبر أحياناً فوق السقف، ولكنها لم تعد بالنسبة له ريحاً منذرة بالشتاء. كان صخب الأمواج المتلاطمة قد سكن الآن وإن كان يسمعه بقوة أكثر. وبدا له صدى هذا الصخب المتصاعد من البحر كموسيقى آتية من جسد الفتاة، متلائمة مع خفقات قلبها، ممتدّة لنبض المعصم. وقد رفرفت فراشة بيضاء على إيقاع الموسيقى أمام أجفان العجوز فترك معصم الفتاة. لن يلمسها في أيّ مكان بعد الآن. إن رائحة فمها غير مؤذية إطلاقاً كذلك رائحة جسدها ورائحة شعرها.

راودت إيغوشي عندها ذكرى هربه مع صديقته التي تلألأ الدم على نهدها، إلى كيوتو عن طريق الشمال. وإذا كان يتذكّر ذلك الآن بمثل هذا الوضوح، فربما كان هذا عائداً إلى أن حرارة هذه الفتاة البريئة، غمرت كيانه. على خط السكة الحديدية الذي يصل أرياف الشمال بكيوتو، يوجد العديد من الأنفاق الصغيرة. وكلّما كان القطار يدخل في أحد هذه الأنفاق، كان يستيقظ توجّس الفتاة فتقرّب ركبتها من ركبته وتشدّ على يده. وعند خروج القطار يرتسم قوس قزح فوق تلة أو جون. كانت تهتف عند رؤية كلّ من أقواس القزح الصغيرة «ما أعذبه!» أو «ما أجمله!». وكما أنه كان كافياً أن تنظر يمنة أو شمالاً عند كل خروج من النفق لتكتشف واحداً منها، تبهت فيه الألوان إلى درجة يصير تمييزها متعذراً، وخلصت أخيراً لترى أن وفرة الأقواس الغريبة هذه، علامة شؤم.

«أيكونون في إثرنا؟ سيمسكون بنا ما أن نصل إلى كيوتو!

عندها سيقيّدونني ولن يسمحوا لي بالخروج من المنزل مطلقاً!».

لم يكن في وسع إيغوشي الذي أنهى لتوّه دروسه الجامعية ووجد مكاناً، أن يعيش في كيوتو بأية حال، وكان يتوقع بكثير من الفطنة أنه سيرجع قريباً إلى طوكيو، إلاّ إذا قُتل وإياها. ولكن رؤية الأقواس الصغيرة جعلته يفكّر بمفاتن الفتاة الخبيثة والتي لم يعد يستطيع طردها من ذهنه. كانت قد أعجبته حين رآها في نزل على ضفة بحيرة كانازاوا. كان الثلج يتساقط أغبر في تلك الليلة. وقد صعق إيغوشي الشاب بجمالها إلى درجة أن الدموع انهمرت من عينيه. لم يصادف بعد ذلك الحين مثل ذلك الجمال ولا عند واحدة من النساء اللواتي عرفهن على مدى عشرات السنين. استهواه جمالها وتوصّل إلى الاعتقاد بأن مفاتن هذه الفتاة الخبيثة، تعكس جمال مشاعرها. وقد أراد كثيراً أن يسخر من هذه الفكرة كالسخرية من حماقة ملحوظة ولكنها أصبحت حقيقة في داخله، تجرّ في اندفاعها سيلاً من الرغبات، وحتى اليوم، حتى في الشيخوخة، لا تزال تلك الذكرى ماثلة لا يقهر قوّتها أي شيء، ولقد أعاد مبعوث من العائلة الفتاة إلى أهلها وتزوّجت بعد ذلك بوقت قصير.

ثم التقى بها صدفة على ضفاف بحيرة شينوبازو تتنزّه حاملة طفلاً على ظهرها، في الفصل الذي تذبل فيه أزهار اللوتس على ضفاف البحيرة. كان الطفل يرتدي قبّعة صوفيّة بيضاء. هذه الليلة، إلى جانب الفتاة النائمة، تساءل إيغوشي الذي تراءى له

أن فراشة بيضاء ترفرف أمام أجفانه: هل السبب عائد إلى قبّعة الطفل البيضاء؟

حين التقاها على ضفاف بحيرة شينوبازو، لم يجد سوى عبارة تافهة يتفوّه بها: «هل أنت سعيدة؟ ـ أجل أنا سعيدة!» أجابت على الفور. ربما لم يكن في إمكانها الإجابة إلا على هذا النحو.

«لماذا تتنزّهين وحيدة برفقة طفل في مثل هذا المكان؟». نظرت الفتاة مليّاً إلى إيغوشي عند هذا السؤال ولم تحر جواباً.

«صبي أم بنت؟

ـ ما بالك، إنها بنت! أليس هذا واضحاً؟

ـ أتكون هذه الطفلة ابنتي؟

ـ آه! بالتأكيد لا! أنت مخطىء!».

هزّت الفتاة رأسها وبريق الغضب في عينيها.

ـ «آه! حسناً. ولكن لنفرض أنها ابنتي، إن لم ترغبي في الاعتراف بذلك الآن، أرجوك قولي لي حتى ولو بعد عشرات السنين!

ـ أنت مخطىء! أجل، أنت مخطىء! لا أنكر أني أحببتك، ولكن أرجوك، وفّر شكوكك على هذه الطفلة! هذا لن يجلب لها إلا المتاعب!

ـ آه! حسناً».

لم يصرّ إيغوشي على رؤية وجه الطفلة عن قريب، ولكنه لاحق طويلاً بعينيه قامة المرأة تبتعد. بعد أن مشت قليلاً،

التفتت مرة واحدة. وعندما لاحظت أنه يلاحقها بنظراته، أسرعت الخطى فجأة. منذ ذلك الحين لم يلتق بها مطلقاً. منذ عشر سنوات سمعهم يقولون بأنها توفّيت. لقد اختطف الموت طيلة السنوات السبع والستين من حياته كثيراً من أقربائه وصديقاته، ولكن ذكرى تلك الفتاة احتفظت بكامل بهائها. بقيت ذكراها المرتبطة بطريقة مبهمة بقبعة الطفلة البيضاء، بمفاتنها الخبيئة، بدم ثديها، حيّة حتى اليوم. ربّما لم يعرف أحد في هذا العالم باستثناء إيغوشي أن جمالها لا مثيل له؛ وكان يلذّ له أن يتخيّل أنه بموته المقبل، ستموت معه ذكراها إلى الأبد في هذا الوجود. كانت الفتاة مذعورة ومع ذلك سمحت له دون خجل مصطنع أن ينظر إليها؛ ربّما هذا من طبيعتها ولكن غالب الظن أنها تجهل هي نفسها جمالها الخاص، ذلك أن جمالها غير مرئي.

بعد وصول إيغوشي والفتاة إلى كيوتو، تنزّها عند الصباح الباكر في غيضة من الخيزران. كانت أوراق الخيزران تتلألأ كالفضّة تحت الشمس المشرقة مرتعشة في الهواء. ولا يزال يتذكّر رغم هرمه الأوراق الرقيقة الغضّة كورقة من فضّة، والأعناق التي بدت هي أيضاً وكأنها مصنوعة من فضّة. وكانت عند أطراف الغيضة نباتات شوكية مزهرة. هكذا رأى الدرب في ذاكرته مع أن الفصل مختلف. وبعد أن اجتازا غيضة الخيزران، وردا نبعاً صافياً واكتشفا شلاّلاً مندفعاً يلتمع رذاذه تحت الشمس. وقفت الفتاة داخل الشلاّل عارية. أمر بعيد الاحتمال ولكن إيغوشي العجوز شعر كما لو أنه حدث فعلاً، منذ متى لا

يدري. منذ بدأ يهرم، كان مجرَّد منظر جذوع الصنوبر الباسقة على تلّة قرب كيوتو، يبعث فيه أحياناً صورة هذه الفتاة. ولكنها قلّما مثلت حادة واضحة كما في هذه الليلة. لعلَّ شباب الفتاة النائمة هو الذي أثارها.

كان إيغوشي متيقظاً تماماً الآن ولا يشعر أن في استطاعته النوم. وفوق ذلك لم يعد راغباً إطلاقاً في تذكّر نساء أخريات غير الفتاة التي أعجبتها أقواس القزح الصغيرة. فضلاً عن أنه غير راغب في ملامسة الفتاة النائمة ولا في رؤيتها عارية تماماً، وقد تمدَّد على بطنه وفتح من جديد الظرف الورقي الموضوع قرب سريره. قالت له صاحبة المنزل بأنه مجرَّد منوِّم، أي نوع من المنوِّم هو؟ هل هو المنوِّم نفسه الذي أعطي للفتاة؟ تردَّد إيغوشي قبل أن يتناول قرصاً في فمه، ثم ابتلعه مع كثير من الماء. ويحدث أحياناً أن يتناول كحولاً قبل النوم دون اللجوء عادة إلى أقراص منوّمة، لذلك شعر على الفور أن النعاس قد غشيه. ثم رأى الرجل العجوز حلماً، امرأة بأربع سيقان تعانقه وتسمّره بسيقانها الأربع، لها أذرع أيضاً. طفا إيغوشي على وجه نعاسه بإبهام. ومع أن السيقان الأربع بدت له غريبة، فإنه لم يشعر بأي انزعاج واحتفظ جسده باضطراب ألذّ وأمتع بكثير من اللّذة التي توفّرها ساقان فقط. فكّر وهو شبه واعٍ: أي نوع من المنوِّم هذا الذي يوفّر لك مثل هذه الأحلام؟ انقلبت الفتاة وأدارت ظهرها له فالتصق ردفها به. ارتعش إيغوشي لمجرَّد أن الفتاة أدارت رأسها. وفي عذوبة الحالة بين الحلم والحقيقة، غرز

أصابعه في شعرها الطويل المبعثر بكثافة، كأنه يسرّحه ثم أغفى.

رأى عندها حلماً آخر مزعجاً إلى أبعد الحدود. فداخل غرفة التوليد في مستشفى، أنجبت ابنته طفلاً مخيفاً. لم يتذكّر إيغوشي عندما أفاق أين يكمن تشوُّهه. وإذا لم يتذكّر فلأنّه لا يريد ذلك. مهما يكن من أمر، كان الطفل مشوّهاً تشويهاً رهيباً. وقد أخفوه على الفور عن أمه. مع ذلك اختبأت وراء الستارة البيضاء في الغرفة ثم اقتربت ومزّقت الطفل إرباً لتتخلّص منه. وكان هناك طبيب، هو صديق لأيغوشي، واقفاً قربها بقميصه الأبيض. إيغوشي أيضاً كان هناك يراقب، وقد عاد إلى رشده تماماً رازحاً تحت وطأة الكابوس. فاجأته الستارة القرمزية التي تلفّه من جميع الجهات، فغطّى وجهه بيديه ومسّد جبينه. ما معنى هذا الحلم المخيف؟ لا داعي لأن يحتوي المنوّم في هذا المنزل على أيّ تأثير مؤذٍ. هل لأنه أتى ساعياً وراء الشهوات المنحرفة فحلم بها؟ لم يعد يتذكّر أيّاً من بناته الثلاث رأى في منامه، وليست لديه أية رغبة في معرفتها. والحقيقة، أنهنّ ثلاثتهنّ أنجبن أطفالاً سليمي البنية تماماً.

لو كان في وسع إيغوشي النهوض والرحيل الآن لفعل ذلك. ما كان منه إلا أن ابتلع القرص الثاني المتبقّي قرب سريره للحصول على نوم أكثر عمقاً. وقد شعر بمرور الماء البارد في حلقه. لا تزال الفتاة النائمة مديرة ظهرها. فكّر بأنه من الممكن أن تنجب هذه الفتاة طفلاً مشوّهاً أو بشعاً للغاية ثمّ وضع يده

حل كتفها الممتلئة: «لو تستديرين ناحيتي الآن». استدارت طالعة كأنها تستطيع سماعه. ثم وضعت يدها فجأة على صدر إيغوشي، وارتعشت كأنها مصابة بالبرد ثم قرَّبت ساقيها منه. إن من غير المعقول أن تصاب هذه الفتاة الحارَّة بالبرد. وقد أطلقت صرخة خافتة، لم يعرف إذا كانت صادرة من فمها أو من أنفها.

«هل تشاهدين أنت أيضاً كابوساً ما؟».

وسرعان ما غرق إيغوشي العجوز في نومٍ عميق.

II

لم يخطر ببال إيغوشي العجوز المجيء مرة ثانية إلى منزل «الجميلات النائمات». حين أمضى ليلته لأول مرة، لم يتصوَّر على الأقل أنه سيرغب في العودة إليه. هكذا شعر عند نهوضه في الصباح قبيل رحيله.

بعد مرور خمسة عشر يوماً على تلك الليلة، اتصل عبر الهاتف سائلاً هل باستطاعته المجيء عند المساء. جاء الصوت المجيب شبيهاً بصوت المرأة التي استقبلته، لكنه بدا في السمّاعة همساً بارداً آتياً من مكان أكثر غموضاً.

«تقول إنك قادمٌ الآن حالاً، يعني في أيّة ساعة ستكون هنا؟
ـ هيّا، فلنقل بعد الساعة التاسعة بقليل.
ـ يضايقني أن تأتي في ساعة مبكرة كهذه. شريكتك لن تكون قد وصلت بعد. حتى وإن كانت موجودة فلن تكون بعد نائمة...».

دهش العجوز وبقي صامتاً.

«بإمكاني أن أُعدّها لك من الآن حتى الساعة الحادية عشرة. إذاً إلى هذه الساعة من فضلك!... أنا في انتظارك!».

تكلّمت المرأة بهدوء، وخفق قلب إيغوشي بالمقابل في سرعة أكثر.

قال وريقه جاف: «حسناً، إلى تلك الساعة إذاً!».

«ماذا يهمّ إذا كانت الفتاة مستيقظة؟ بودّي لو تنذّمينها لي قبل أن تنام!». لئن بدا له أن في وسعه أن يقول شيئاً من هذا القبيل، هكذا بلا مبالاة، بنبرة شبه هازئة، فقد بقي السؤال محبوساً في حلقه. إنه يصطدم بالقوانين غير المكتوبة لهذا المنزل. حتى وإن كانت قوانين غريبة، فمن اللائق تنفيذها بدقّة. إذ أنها لو انتهكت لمرة واحدة، فسيصبح المنزل عندها منزل بغاء رخيصاً، ويمّحي سعي العجائز وأحلامهم المضطربة إلى الأبد. حين سمعها في الهاتف تقول إن التاسعة مساء وقت مبكر للغاية والفتاة لا تكون نائمة بعد، بل ستعدّها له من الآن حتى الحادية عشرة، أحسَّ في صدره المرتعش حرارة الرغبة المفاجئة، فذلك بالنسبة له اكتشاف غير متوقّع البتّة. كان الأمر بمثابة صدمة كأنه مدعوّ على غير استعداد للخروج من الواقع التافه للحياة اليومية. هذا كله لأن الفتاة ستكون نائمة ولن تستيقظ في أيّ حال من الأحوال.

ربما كان قراره بالعودة، بعد خمسة عشر يوماً بالكاد، إلى هذا المنزل الذي حسب أنه لن يرجع إليه، مبكراً أكثر مما ينبغي أو متأخّراً أكثر مما ينبغي. فمهما يكن، لم يضطر إلى مقاومة أية

تجربة. على العكس، قلّما شعر بميل إلى تجديد هذه التسلية المحزنة للشيخوخة، وفوق ذلك، فإنه ليس هرماً عاجزاً كالمسنّين الذين هم بحاجة إلى منزل من هذا النوع. لكن تلك الليلة، أي الأولى التي أمضاها هناك، لم تترك لديه أثراً مزعجاً. ومع أن ذنبه جليّ، فقد انتهى إلى الاعتقاد بأنه لم يسبق له خلال السنوات السبع والستين في حياته أن أمضى ليلة أكثر عفّة منها مع امرأة. لقد أحسَّ بذلك منذ لحظة نهوضه في اليوم التالي. كان المنوّم قد فعل فعله لأنه أفاق في الساعة الثامنة أي في وقت متأخر جداً عن المعتاد. لم يلامس جسده الفتاة في أي مكان. كان للاستيقاظ بحرارتها الفتيّة ورائحتها الشهيّة عذوبة الطفولة.

كانت الفتاة قد استدارت ناحيته. رأسها قريب قليلاً وجذعها غائص، حتى أن ظلاً ملحوظاً بالكاد ارتسم في طيّة ذقنها على عنقها الطويل المراهق. كان شعرها الطويل مبعثراً إلى ما وراء الوسادة. وقد أشاح إيغوشي بصره عن شفتي الفتاة المطبقتين بعناية، وحين توقّف عند الأهداب والحاجبين، لم يتردّد في الاعتقاد بأنها عذراء. كانت المسافة أصغر من أن تتمكّن عيناه المديدتان من ملاحظة كل رمش أو كل شعرة في الحاجبين. كان لبشرة الفتاة التي منعه حسور نظره من رؤية زغبها، بريق عذب. لا وجود لأية بثور لا في الوجه ولا في العنق. وقد نسي العجوز كابوس الليلة الفائتة. وإذ أحسَّ رغماً عنه بالحنوّ على الفتاة، فقد غمرت قلبه عاطفة طفولية كما لو أنه هو نفسه موضوع حنوّها. وبحث عن نهد الفتاة وأخذه في راحته

خلسة. صعقه عند هذه الملامسة إحساس غريب كالبرق، شعر أنه نهد أمه قبل أن تحبل بـه. سحب الرجـل العجوز يـده ولكن الشعور اخترقه من الصدر حتى الكتفين.

سمع انفتاح الحاجز الجرَّار في الغرفة المجاورة.

«هل أفقت من نومك يا سيدي. قالت المضيفة. لقد جهَّزت لك إفطارك. . . »،

أجاب إيغوشي بـطريقة آليـة: «نعم!». كان شعـاع الشمس المتسرّب من فتحة الصفوف الخشبيـة يرسم خـطاً من النور عـلى الستارة المخملية. لم يضف هذا النور الصباحي شيئاً على الضوء الغامض المتسـاقط من السقف.

ألحَّت المرأة: «هل بإمكاني مساعدتك؟

ـ نعم!».

استنـد إلى مرفقـه خارجـاً بصعوبـة من السرير وداعب بـاليد الأخرى شعر الفتاة برقّة.

أدرك العجـوز أنَّ إيقاظ الـزبون من النـوم يتمّ قبـل أن تفيق الفتاة. ولكن المرأة قدَّمت له فـطوره دون عجلة. إلى أية سـاعة تـظلّ الفتاة نـائمة؟ فكَّـر إيغـوشي بـأن عليـه أن يتجنَّب الأسئلة المتطفّلة وقال بطريقة لامبالية:

«ـ إنها لطيفة، هذه الصغيرة.

ـ أجل. هل رأيت أحلاماً سعيدة؟

ـ ألهمتني أحلاماً سعيدة!».

قالت المرأة لتحوّل مجرى الحديث: «لقد هدأت الريح والأمواج هذا الصباح».

كان الشعور المسيطر على إيغوشي لدى زيارته الثانية بعد خمسة عشر يوماً، مزيجاً من الانزعاج والفضول والإثارة أيضاً بدلاً من الفضول في المرة الأولى. ولقد أخلى الضيق، لاضطراره الانتظار من التاسعة حتى الحادية عشرة، المكان لشعور مضطرب بالاغواء.

جاءت امرأة المرّة السابقة تسحب المزلاج وتستقبله عند البوابة. كانت اللوحة ذاتها لا تزال معلّقة في «التوكونوما» وكان الشاي لذيذاً كما في المرة السابقة. وقد كان إيغوشي أكثر انفعالاً من الليلة الأولى، لكنه استوى في جلسة من هو معتاد على المنزل. التفت ينظر إلى مشهد الجبل بألوانه الخريفية.

قال شارداً: الطقس حار هنا، لذا تتقلّص أوراق القيقب قبل أن تصبح حمراء كليّاً. إنَّ الظلام شديد، ولم أستطع رؤية الحديقة جيداً، ولكن. . .

أجابت المرأة بلهجة غير مبالية: هذا ممكن. لقد بدأ الطقس يبرد. ولذا وضعنا غطاء كهربائياً يتّسع لشخصين وهو مزوَّد بقاطعين للتيار. هكذا تستطيع أن تعيّره وفقاً للحرارة التي تشاء.

ـ لكني لم أستعمل قط غطاء كهربائياً.

ـ إذا كان هذا يزعجك فبإمكانك أن تطفئه من جهتك؛ ولكن أرجو منك أن تبقيه مشتعلاً لجهة الفتاة.

فهم العجوز قصدها، لأنها لا ترتدي شيئاً.

«ـ غطاء واحد يسمح لشخصين أن يحصل كلّ منهما على الحرارة التي يريد، إنه لاختراع عبقري!

ـ هو من صنع أميركا... على كل حال، لا تكن خبيثاً فتتسلّى بقطع التيار لجهة الفتاة، أرجوك! أظنّ أنّك فهمت ما أقصد، إنها لن تستفيق حتى ولو شعرت بالبرد!

ـ ...

ـ صغيرة هذا المساء أكثر تمرّساً من فتاة الليلة السابقة.

ـ صحيح؟

ـ وهي جميلة أيضاً. لن تؤذيها حتى ولو لم تكن هي أيضاً جميلة...

ـ أليست هي فتاة الليلة السابقة نفسها؟

ـ لا، صغيرة هذه الليلة... أيزعجك ألّا تكون نفسها؟

ـ لست متقلّباً إلى هذا الحدّ!

ـ «متقلّباً»... تتكلّم عن التقلّب، هل تكون قد فعلت بها شيئاً؟».

شعر إيغوشي بلذعة من السخرية في لهجة المرأة المتكلّفة.

«لا أحد من زبائننا يرتكب أية حماقة. نحن لا نستقبل هنا إلا زبائن لا يجلبون المتاعب».

لم تنظر المرأة ذات الشفتين الرقيقتين إلى وجه إيغوشي العجوز الذي كان يرتجف ذلاً دون أن يدري ماذا يقول. أليست محدّثته في نهاية الأمر مجرَّد قوَّادة دون قلب، متمرِّسة بالدناءات كلها؟

على كلٍّ، أنت حرٌّ في أن تعتبر نفسك متقلّباً، الفتاة نائمة وهي تجهل حتى مع من ستقضي ليلتها. الفتاة السابقة تجهل كل شيء عنك تماماً كفتاة هذه الليلة؛ لذا فالكلام عن التقلّب أمر فيه شيء من...

- حقاً! أليست هذه علاقات انسانية؟
- ماذا تعني؟

العلاقة بين عجوز لم يعد رجلاً وبين شابة راقدة عن عمد لأجله ليست «انسانية»! إن النطق بهذا بعد الدخول إلى المنزل يردّد صدىً غريباً.

«ما الذي يمنعك من أن تكون متقلّباً إذا راق لك ذلك؟» قالت المرأة بصوتها الفتيّ الغريب وهي تضحك كأنها تطيِّب خاطره. «إذا أعجبتك الفتاة السابقة إلى هذا الحدّ فسترقد من أجلك في المرّة المقبلة عندما تشرِّفنا بقدومك، ولكن حتماً ستقول بأنك تفضِّل فتاة هذه الليلة».

ـ هل تعتقدين؟ قلت إنّها متمرّسة، ماذا تعنين بذلك وهي تنام طيلة الوقت؟
ـ أعني. . . ».

نهضت المرأة، وأدارت مفتاح الغرفة المجاورة، وألقت نظرة في الداخل، ثم وضعت المفتاح أمام إيغوشي العجوز.
«من فضلك! خذ راحتك!».

وإذ بقي إيغوشي لوحده، سكب ماءً ساخناً من المغلاة في الركوة واحتسى الشاي بهدوء. أو على الأقل تعمَّد أن يشربه بهدوء ولكن الفنجان كان يرتعش في يده. «آه! لا، ليس التقدّم في العمر هو الذي يجعلني أرتجف. إنني لم أصر بعد زبوناً موثوقاً به! بالتأكيد لا!» تمتم لنفسه. . ماذا لو انتهك المحرّمات انتقاماً للعجائز الذين يرتادون هذا المنزل معرّضين أنفسهم للإهانة والاحتقار؟ والفتاة نفسها، ألا يردّ لها بذلك اعتبارها ككائن انساني؟ لقد كان يجهل قوّة المخدّر الذي أعطي لها. فعسى أن يتبقّى له شيء من القوّة الذكورية لانتشالها من نومها. هذا ما فكّر فيه، ولكن إيغوشي العجوز لم يكن يجد الإثارة اللازمة في قلبه.

ما هي إلا سنوات قليلة ويصيبه شخصياً هرم العجائز المرعب، العجائز المثيرين للشفقة الذين يتردّدون إلى هذا المنزل. إلى أيّ حدٍّ استطاع خلال السنوات السبع والستين من ماضيه أن يسبر المدى الهائل للرغبات وعمقها اللامحدود؟ ومن حول

العجائز تتفتّح فتيات جميلات لا عدَّ لهنَّ ببشراتهنَّ الجديدة، بشراتهنَّ الفتيّة. ألا تجد رغبات العجائز وأحلامهم وحسرتهم على أيامهم الضائعة اكتمالها في آثام هذا البيت التعس؟ كان إيغوشي قد تساءل في المرة السابقة: هل هؤلاء الفتيات اللواتي لن يستيقظن يجسِّدن للعجائز حرية لم تنل منها السنوات؟ ألا تتحدَّث الفتيات النائمات بصمت اللغة التي يحلو للعجائز سماعها؟

نهض إيغوشي وفتح باب الغرفة المجاورة فصفعته على الفور رائحة دافئة. ابتسم. لماذا يعذِّب نفسه؟ يدا الفتاة كانتا ممدَّدتين فوق الفراش وأظافرها مطليّة بلون وردي وأحمر شفاهها سميكاً. كانت مستلقية على ظهرها.

«متمرّسة، وأيّة متمرّسة!» تمتم إيغوشي، ثم اقترب: خدَّاها متورّدان، لا بدّ أن الدم تدفَّق إلى وجهها بتأثير سخونة الغطاء. كانت رائحتها نفَّاذة، أجفانها العليا سميكة، خدَّاها مستديرين وعنقها من البياض بحيث أنه يعكس قرمزيّ الستارة المخمليّة. ثمّ إن طريقتها في إغماض عينيها كانت توحي بأنها مغوية حتى في نومها. فيما كان إيغوشي يخلع ملابسه على حدة مديراً ظهره، غمرته رائحة الفتاة التي ملأت الغرفة.

يبدو أن إيغوشي لن يتمكَّن من الإبقاء على تحفُّظه كما فعل مع الفتاة في المرة السابقة. في يقظتها أو في نومها، كانت هذه الفتاة من تلقاء ذاتها تغويه، حتى أنه بات مقتنعاً بأن المسؤولية

تقع عليها في حال انتهك حرمات هذا المنزل. أغمض إيغوشي عينيه يحدس مسبقاً بالمتعة الآتية وبقي جامداً، وكان هذا وحده كافياً لإيقاظ حرارة الشباب في أعماق جسده. كانت صاحبة المنزل قد ألمحت إليه بأن فتاة هذه الليلة أهمّ من الفتاة الأخرى، ولكن كيف تسنّى لهم إيجاد فتاة مماثلة؟ عند هذه الفكرة وجد العجوز المنزل أكثر خطورة. لم يكن إيغوشي ذلك الخبير في العطور، ولكن يبدو واضحاً أن هذه الفتاة تستعملها. لو أنه يستطيع الآن أن يغرق في رقاد عذب، لما كانت هناك سعادة تفوقها سعادة. هذا أمر مشتهى. قال في نفسه: فلنرَ عن كثب... واقترب منها بعذوبة. بدت الفتاة وكأنها استجابت فاستدارت نحوه بحركة رشيقة ووضعت يديها في الوقت نفسه بالقرب منه كأنها تنوي معانقته.

هتف إيغوشي: «ماذا؟ هل أنت حقًا مستيقظة؟ قولي هل أنت مستيقظة؟». ابتعد وهزّها من ذقنها. هل هزّها بعنف؟ ذلك أن الفتاة أدارت وجهها نحو الوسادة كأنّها تتحاشاه. انفرجت شفتاها ولمس إيغوشي بسبابته واحدةً أو اثنتين من أسنانها. جمد لوهلة دون أن ينتزع إصبعه. الفتاة من جهتها أيضاً لم تحرّك شفتيها. لا شيء بطبيعة الحال يدعو للاعتقاد بأنها تصطنع النوم. إنها فعلاً غارقة في نوم عميق.

كان إيغوشي قد تعجّب أمام مديرة المنزل من أن الفتاة هذه الليلة لن تكون الفتاة نفسها. لكن الأمر لا يحتاج إلى الكثير من

الفطنة لنكشف أن الفتيات لو خُدِّرن ليلة إثر ليلة لوقعن في المرض. ومن جهة أخرى يمكننا الاعتقاد بأن فرض «التقلّب» على العجائز أفضل من أجل صحة الفتيات. ثم إن هذا المنزل لا يمكنه إلاّ استقبال زبون واحد في الطابق الأول. وكان إيغوشي يجهل أي شيء تماماً عن الطابق الأرضي. ولكن على افتراض أن هناك غرفة مهيّأة للزبائن، فلا مجال إلاّ لواحدة. من هنا نستنتج بأن عدد الفتيات اللواتي يرقدن لأجل العجائز لا يمكنه أن يكون كبيراً. هل هنّ جميعهنّ جميلات كفتاة الليلة الأولى وكهذه الفتاة؟

كانت أسنانها تحت إصبع إيغوشي تبدو عند الملمس وكأنها مطليّة بمادة لزجة خفيفة. وقد انزلقت سبابة إيغوشي بين الشفتين وتابعت صفّ الأسنان، مرتين، ثلاث مرّات في اتجاه، ثمّ في اتجاه معاكس. كان الجزء الخارجي من الشفتين جافاً، ولكن رطوبة الداخل أعدته فجعلته ناعماً، بينما هناك سنٌ نبتت إلى الخارج. حاول إيغوشي أن يمسك السنّ بإبهامه وسبّابته. رغب بعد ذلك في تمرير إصبعه من الجانب الداخلي للأضراس، ولكن فكّي الفتاة كانا مشدودين بقوة بحيث لا تمكن زحزحتهما. عندما انتزع إصبعه، كانت مغطّاة بالأحمر. بماذا سيمسح أحمر الشفاه عن إصبعه؟ لو مسحه بوجه الوسادة لبدا أن اللطخة صنعتها الفتاة بنفسها وهي نائمة على بطنها. ولكنه أحسّ بأن هذا الأحمر لن يزول إذا لم يلعق إصبعه. الغريب في الأمر أنه شعر بالقرف عند فكرة حمل إصبعه الملطخة إلى فمه. عندئذ مسحه الرجل

العجوز بشعر الفتاة فوق جبينها. وفيما هو يمسح إبهامه وسبَّابته، لامست أصابعه الخمس شعرها فغرزها فيه، وأخذ يبحث بعنف متزايد داخل كتلة الشعر هذه. كانت رؤوس شعر الفتاة ترسل تياراً كهربائياً يمتدّ إلى أصابع العجوز. وصارت رائحة الشعر أكثر إصراراً، ورائحة الفتاة أكثر نفاذاً في سخونة الغطاء الكهربائي. وأعجب إيغوشي وهو يداعب شعر الفتاة بطريقة انغرازه وخصوصاً بالخط الجميل الواضح الذي يرسمه على العنق الطويل. كان شعر الفتاة قصيراً من الخلف ومرفوعاً بعناية إلى فوق، متروكاً فوق الجبين على طبيعته طويلاً حيناً وقصيراً في أماكن أخرى. كشف العجوز جبينها وتأمّل الحاجبين والأهداب بيد، ثم نبش باليد الأخرى شعرها بعمق حتى ملامسة فروة الرأس.

قال إيغوشي العجوز: «ومع ذلك فهي لا تستيقظ!»، ثم أمسك رأس الفتاة بكلتا يديه وهزّه. حرّكت الفتاة حاجبيها كأنما تحت تأثير الألم واستدارت من نصفها لتنام على بطنها. اقترب جسدها بذلك أكثر من جسد العجوز. أخرجت ذراعيها ملقية الذراع اليمنى على الوسادة وأسندت خدها الأيمن إلى قفا يدها. في وضعها هذا، لم يكن في استطاعة إيغوشي سوى مشاهدة أصابعها. كانت أصابعها متباعدة قليلاً، الخنصر تحت الحاجب والسبَّابة بازغة من تحت الشفتين والإبهام مختفياً تحت الذقن. كان أحمر الشفاه المقلوبة قليلاً ينسج مع أحمر الأظافر الأربعة الطويلة بقعة واحدة على وجه الوسادة الأبيض. أما الذراع

اليسرى فكانت مطوية عند المرفق وقفا اليد تحت عيني إيغوشي تقريباً. بالمقارنة مع استدارة الخدّين الممتلئين، كانت الأصابع طويلة ونحيلة نسبياً وتوحي بساقين رشيقتين مماثلتين. وقد فتّش العجوز براحة قدمه عن ساقي الفتاة. كانت أصابع يدها اليسرى متباعدة قليلاً ومرتخية. وأسند إيغوشي العجوز خدّه إلى ظاهر هذه اليد. فتحركت الذراع تحت ثقله حتى الكتف، ولكن دون قدرة على سحب اليد. وبقي العجوز جامداً هكذا فترة من الزمن. وعندما أخرجت الفتاة ذراعيها الاثنين رفعت كتفيها قليلاً، فتشكّلت حدبة لها استدارة طفولية عند مفصل الذراع. وسحب إيغوشي الغطاء عن كتفها وغطّى هذه الحدبة براحة يده برقّة. وصعدت شفتاه من ظاهر اليد حتى الذراع. وقد أثارته رائحة الكتف ورائحة العنق. وتقلّصت كتف الفتاة وظهرها كله ثم استرخيا بعد قليل فالتحم جلدها بيد العجوز.

لقد حان الوقت لينتقم إيغوشي من هذه الأجيرة النائمة لكل العجائز الذين يأتون إلى هنا معرّضين أنفسهم للإهانة والاحتقار. سينتهك محرّمات هذا المنزل. ولكنه نُبّه إلى أنه لن يستطيع بعد ذلك أن يطأ أرضه ثانية. وعامل الفتاة بقسوة آملاً أن يوقظها قبل كل شيء. غير أن الدليل القاطع على عذريّتها ما لبث أن صدّه.

هتف: «آه!» وابتعد، وأصبح تنفّسه غير منتظم وقلبه خافقاً بقوة. كان هذا ناتجاً عن ذهوله أكثر مما هو ناتج عن تنحّيه المفاجىء.

أغمض العجوز عينيه وقسر نفسه على الهدوء. لم يكن الهدوء أمراً صعباً كما هي الحال بالنسبة لشاب. فتح عينيه من جديد مداعباً خلسة شعر الفتاة. كانت لا تزال في الوضع نفسه نائمة على بطنها. عاهرة في مثل هذه السن وعذراء، ما معنى هذا؟ ومع ذلك فهي عاهرة فعلاً؛ عبثاً حاول العجوز إقناع نفسه؛ وبعد مرور العاصفة تحوّل شعوره تجاه الفتاة وتجاه نفسه، مانعاً إياه من الرجوع إلى الوراء. لم يكن نادماً على شيء. ومهما كان سيفعل بامرأة نائمة وغافلة عن كل شيء، فهذا أمر دون أهمية. ولكن، ما معنى الذهول الذي انتابه فجأة؟

ترك نفسه ينجرّ في تصرف غير مسؤول مفتوناً بجمال الفتاة المغوي. وهذا ما دعاه إلى التساؤل: ألم يكن زبائن هذا المنزل العجائز يستمدّون منه أكثر بكثير مما حسب هو، أكثر من غبطتهم البائسة، من رغباتهم الجارفة وأحزانهم العميقة؟ حتى لو افترضنا أنها مجرَّد متعة غير آبهة من متع الشيخوخة ورجوع إلى الشباب بسعر زهيد، فإن هناك شيئاً خفيّاً في الحقيقة لا يمكن لأيّ حسرة أن تبعثه من جديد أو لأيّ جهد أن يشفيه. أن تكون فتاة مثيرة إلى هذا الحدّ و«متمرّسة» قد بقيت عذراء، فهذا الدليل القاطع ليس فقط على احترام العجائز أو حرصهم على التمسّك بالتزاماتهم، بل على الأصح الدليل على عجزهم الفظيع. إن عذرية الفتاة، بالمقابل، برهان على فظاعة الشيخوخة.

لا بدّ وأن يد الفتاة المتمدّدة تحت خدها الأيمن قد نمّلت

لوفعتها فوق رأسها وطوت أصابعها مرتين أو ثلاثاً ثم بسطتها ببطء. ولامست يدها يد إيغوشي العابثة بشعرها، فأمسكها فوجد أصابعها ناعمة وباردة قليلاً. ضغط عليها العجوز بقوة كأنه يريد سحقها. رفعت الفتاة كتفها اليسرى واستدارت من نصفها ملوّحة بذراعها اليسرى في الهواء كأنها تريد معانقة إيغوشي. ولكن الذراع الرخوة تهالكت قبل الوصول إلى عنقه. كان وجه الفتاة قبالته قريباً جداً حتى أنه رآه أبيض ومموّهاً. ولكن الحاجبين الكثيفين، والأهداب الظليلة، واستدارة الأجفان والخدين، والعنق الأجيد، كل ذلك عزّز انطباعه الأول بأنه في حضرة امرأة مثيرة للغاية. نهداها كانا متهدّلين قليلاً ولكن ممتلان، وحلمتهما واسعة ومنتفخة بالنسبة لصبيّة يابانية. وقد مرّر العجوز يده على ظهر الفتاة وصولاً حتى الساقين. ساقاها كانتا بدءاً من الوركين صلبتين ورشيقتين. ربما كان عدم التناسق الظاهر بين أعلى جسدها وأسفله عائداً إلى أنها عذراء.

كان إيغوشي العجوز وقد هدأ الآن، يتأمّل وجه الفتاة وعنقها. كانت بشرتها تتلاءم جيداً مع الانعكاس الشفّاف للستارة المخملية القرمزية، ومع أن جسد هذه الفتاة، التي وصفتها المضيفة بأنها «متمرّسة»، دمية في أيدي العجائز، إلّا أنه بقي كجسد عذراء. ذلك أن العجائز عاجزون وهي راقدة في سبات عميق. عندئذ تساءل إيغوشي وقد انبثق في داخله شعور شبيه بالعطف الأبوي، أية مشاكل يمكن أن تتعرّض لها في حياتها فتاة مثل هذا الإغواء؟ كان هو أيضاً قد بدأ يحمل جراح

الشيخوخة. كان جليّاً أن الفتاة لا تنام في مكان كهذا إلاّ طمعاً بالمال، أما العجائز الذين يدفعون فكانوا يجدون في التمدّد إلى جانب فتاة كهذه متعة لا تضاهيها متعة بالتأكيد. وبما أنها لن تفيق، فالزبائن المسنّون يوفّرون على أنفسهم الشعور بالخجل والنقص وهو ميزة الهرم، ويجدون الحرية للاستسلام دون قيد أو شرط لخيالهم وذكرياتهم مع النساء. أليس هذا هو السبب لقبولهم الدفع بكل رضىً أكثر بكثير مما يدفعون لامرأة مستيقظة؟ ربما كان جهل الفتاة النائمة كل أمر عن العجوز يسهم في طمأنته. والعجوز من جانبه لا يعرف أي شيء عن ظروف الفتاة أو شخصيتها. كما أنه غير قادر على التكهّن بها لأنه يجهل حتى طريقة لباسها. إن لدى العجائز بالتأكيد مبرّراً أوّلياً كي لا يخشوا أية مشاكل لاحقة. ولكن هناك بالمقابل تلك البارقة الغريبة في مقرّ ظلماتهم الدامسة.

غير أن إيغوشي العجوز لم يكن يستطيع التعوّد على هذه العلاقة مع فتاة لا تنبس حرفاً، لا تفتح عينيها، أي باختصار، مع فتاة لا تتنازل بأي شكل من الأشكال لتتعرّف إلى وجود كائن بشري يدعى إيغوشي. لم يتوصّل إلى إلغاء هذا الإحساس بالتفاهة وعدم الاكتفاء. كان راغباً في سماع صوتها والتحدث إليها. كان ميله إلى ملامسة جسد فتاة نائمة غير قوي وممزوجاً بالشفقة. بيد أن إيغوشي عزم، بعد إقلاعه عن انتهاك المحرّمات، حين اكتشف أنها عذراء، على متابعة شطط العجائز الآخرين. كان مقتنعاً أن فتاة هذه الليلة تنبض بالحياة وهي

لـالمة أكـثر من الفتاة الـسـابقة، وهـذا يُحسّه بـالتأكيـد من تنسّم رائحتها والاحتكاك بها وحركاتها.

وكما في المرة السابقة، وجد قرب سريـره قرصيْ منـوّم معدّين لـه، غير أنـه تساءل هـذه الليلة أيتأمّل الفتاة مليّاً بـدل تنـاول الأقراص باكراً والنوم. كانت تتحرّك باستمرار وهي نائمة. ربمـا انقلبت في السريـر لعشرين أو ثلاثـين مـرة خـلال هـذه الليلة. وأدارت لـه ظهرهـا ثم مـا لبثت أن استـدارت نحـوه. في أثنـاء ذلك، بحثت عنه بذراعها. وضع إيغوشي يـده على ركبـة الفتاة وجذبها نحوه.

قالت بصوت شبه مسموع: «آه! لا».

ـ هل أنت مستيقظة؟

اعتقد أنها ستفتح عينيها. فجذب ركبتها بقوة أكـبر. انطوت الركبة دون أدنى مقاومة في اتجاهه. مـرّر ذراعه تحت رأس الفتـاة ثم رفعه برفق وهزّه.

قالت: آه! أين أنا؟

ـ أنت مستيقظة! أفيقي الآن!

قالت الفتاة: لا، لا!، وألصقت وجهها بكتف إغوشي كـأنها تـريد أن يتـوقّف عن هزّهـا. ولمس جبينها عنق إيغـوشي فـوخـز شعرها أنفـه. كان شعـرها مـزعجاً إلى درجـة الإيلام. رائحتـه ثقيلة. أبعد إيغوشي وجهه.

قالت الفتاة: «ماذا تفعل هنا؟ لا أريد!».

ـ لا أفعل لك شيئاً. أجاب العجوز. ولكنّها تتكلّم في نومها. هل أساءت الظن، وهي نائمة، بحركاته أم أنها تسترجع في الأحلام إحدى الأذيّات التي ألحقها بها زبائنها العجائز الليليون؟ مهما يكن من أمر، فإن قلب إيغوشي، ازدادت خفقاته لمجرّد تمكنه من التحدّث إليها، ولو في حوار وهمي، ولو في كلمات غير مترابطة تفوّهت بها وهي نائمة. لعلّ إيقاظها ممكن عند الصباح. ولكن هل تكون الكلمات التي تلفّظ بها العجوز لتوّه قد تسرّبت إلى مسامعها حتى وهي نائمة؟ هل كان هذيانها صادراً عن ردّة فعل اصطدامها بجسد العجوز أكثر مما هي استجابة لكلماته؟ فكّر أن يضربها بعنف أو أن يقرصها، ولكنه فضّل أن يضمّها بين ذراعيه برقّة. لم تقاوم الفتاة ولم تصرخ. كانت تتنفس بصعوبة. وقد لامس لهاثها الخفيف وجه العجوز فصار تنفّسه غير منتظم. للمرة الثانية أغوت الفتاة إيغوشي بسهولة. لو أنه أفقدها عذريّتها فأيّ حزن سيصيبها غداً! وأيّ اتجاه ستأخذ حياة الفتاة من جرّاء ذلك؟ على أية حال مهما حصل لها في لن تنتبه لشيء حتى الصباح.

هتفت الفتاة بدهشة مخنوقة: «أمّي!».

ـ «أنا هنا، أنا هنا، هل تذهبين؟ اتركيني، اتركيني...

ـ بماذا تحلمين؟ ألم أقل لك إنه مجرّد حلم!

قال إيغوشي ذلك وضمّها بقوة أكثر محاولاً إخراجها من حلمها.

غمر الحزن النابض في صوت الفتاة، وهي تنادي أمّها، قلب إيغوشي. كان نهداها ملتصقين بصدر العجوز إلى درجة الانسحاق. وحرّكت ذراعيها. هل كانت تحسب في الحلم أن إيغوشي هو أمُّها فحاولت أن تضمّه؟ بالتأكيد لا، فهذه الفتاة مثيرة بشكل مطلق حتى وهي نائمة، حتى وهي عذراء، وقد شعر إيغوشي أنه لم يسبق له خلال السبعة والستين عاماً أن لمس امرأة مثيرة إلى هذا الحدّ. إذا افترضنا أن هناك أسطورة شهوانية فإن هذه الفتاة خارجة لا بدّ من هذه الأسطورة.

ولكنه أخيراً توصّل إلى أنها ليست ساحرة، بل اعتبرها واقعة تحت تأثير سحر ما. «رغم أنها نائمة فهي تنبض بالحياة». وبكلام آخر، رغم أن وعيها غارق في سبات عميق فإن جسدها بقي مستيقظاً في أنوثته. ليس هناك وعي إنساني بل مجرَّد جسد امرأة. أيكون من الممكن أنها دُرِّبت بشكل كامل لتصلح شريكة للعجائز وإلى درجة أن صاحبة المنزل وصفتها بأنها «مُتمرّسة»؟

أرخى إيغوشي ذراعه التي تضمّها بقوة، وحين وضع ذراعها بطريقة تبدو معها وكأنها تعانقه، ردّت له الفتاة منصاعة هذا العناق. لم يأتِ العجوز بحركة بل أغمض عينيه وغمرته نشوة حارّة، متعة لا شعورية تقريباً. أحسّ أنه يفهم المتعة والسعادة التي تغمر العجائز لدى ارتيادهم هذا المنزل. هؤلاء العجائز ألا يعثرون في أماكن مماثلة، فضلاً عن ضيق الشيخوخة وفظاعتها وبؤسها، على أعطية حياة شابة تغمرهم؟ كان ممكناً لرجل وصل

إلى ذروة الشيخوخة، أن يجد لحظة واحدة يستطيع معها أن ينسى نفسه إلى درجة الاستسلام بملء جسده لفتاة شابة تغمره. هل يعتبر العجائز أن ضحية نائمة لأجل هذا الهدف شيء مُشرب ببراءة تامة أم أن شعورهم بذنب خفيّ هو الذي يمدّهم بمتعة فائقة؟ أمّا هو فقد نسي نفسه ونسي أيضاً أنها ضحية، فأخذ يتحسّس بقدميه أصابع قدم الفتاة. هذا هو المكان الوحيد الذي لم يلمسه بعد من جسدها. كانت أصابعها طويلة وتتحرّك بليونة، والسلاميات تطوى وتبسط بالحركة نفسها التي لأصابع اليدين. وهذا وحده مارس على إيغوشي التأثير الخارق الذي يصدر عن امرأة لا تقاوم. هذه الفتاة قادرة حتى في نومها على تبادل تأثيرات غرامية ليس بشيء، فقط بأصابع قدميها. واكتفى العجوز بسماع حركات الأصابع كموسيقى طفولية ناقصة ولكن ساحرة، وبقي لوقت طويل مصغياً إليها.

كانت الفتاة تحلم، فهل انتهى حلمها؟ ربما لم يكن ذلك حلماً، قال إيغوشي في نفسه، بل حوار لا إرادي، وبعادة الاعتراض في كل مرة يصير عجوز ما أكثر إقداماً. غمرته الفتنة المنبعثة من تلك الفتاة القادرة رغم نومها على التواصل معه دون كلام، بواسطة جسدها وحده. وإذا ساورته رغبة ما في سماع صوتها وإن كان مجرّد كلمات لا رابط بينها، فهذا لأنه لم يألف بعد أسرار هذا المنزل. وتساءل إيغوشي العجوز محتاراً عمّا ينبغي أن يقوله أو عن المكان الذي يجب ملامسة الفتاة فيه حتى تتكرّم بالإجابة.

قال: «هل انتهيت من حلمك الآن؟ أحلمت بأن أمّك ذاهبة إلى مكان ما؟» ومرّر يده على طول العمود الفقري متوقّفاً عند الفجوات. حرّكت الفتاة كتفها ومن جديد استلقت على بطنها. أحسّ أن هذا هو وضعها المفضّل. وجهها ما برح متّجهاً ناحية إيغوشي، وقد ضمّت حافة الوسادة بيدها اليمنى برفق، وألقت بذراعها اليسرى على وجه العجوز. لم تقل شيئاً، وأحسّ باللهاث الحارّ لتنفّسها المادىء. تحرّكت ذراعها كأنها تريد استعادة التوازن فأخذها بكلتا يديه ووضعها فوق عينيه. وخزت رؤوس أظافر الفتاة الطويلة بنعومة أذن إيغوشي. ومال مفصل المعصم على جفنه الأيمن فغمره الجزء الأكثر ضموراً من الساعد. وتمنّى أن يبقى هكذا، فضغط بيد الفتاة على عينيه. كانت رائحة اليد المتصلة بكرتيْ عينيه قوية إلى درجة أن إيغوشي أحسّ برؤيا جديدة، غنيّة، تصعد في داخله. في مثل هذا الشهر بالضبط، تفتّحت زهرتا فاوانيا أو ثلاث في شمس الخريف المتأخر عند أسفل حائط عالٍ لدير في ياماتو، أزهار كاميليا بيضاء متفتحة على حافة الحديقة في المتزه الخارجي لمعبد الشعراء الملهمين، ولكن كان هذا إبّان الربيع في نارا، أزهار وستارية و«الكاميلية المنزوعة البتلات» تكسوها الأزهار في تسوباكي ـ ديرا.

«آه! لقد فهمت!». كانت هذه الأزهار مرتبطة بذكرى بناته الثلاث المتزوجات. أزهار شاهدها خلال الرحلة التي قام بها برفقة بناته الثلاث ـ أو ربّما برفقة واحدة منهنّ. لعلهنّ الآن،

بعد أن تزوّجن وأصبحن أمهات، لم يعدن يتذكّرن ذلك أبداً. ولكن إيغوشي يتذكّر تماماً، وحين تعاوده ذكرى هذه الأزهار من حين لآخر، كان يحدّث زوجته عنها. لم تكن زوجته قد ابتعدت مثله عن بناتها منذ زواجهن بل استمرّت تحافظ على علاقات حميمة معهن، دون أن تعلّق أهمية على الإعجاب مثلاً قبل زواجهن بهذه الأزهار خلال الرحلة. والحق أن الأمر يتعلّق بأزهار خلال رحلة لم تشارك فيها الوالدة.

كان يرى في أعماق عينيه اللتين تغطيهما يد الفتاة رؤيا أزهار تظهر تارة وتختفي تارة أخرى. وإذ هو يسترسل في هذه الرؤى، أخذ يعيش من جديد الأحاسيس التي عاناها يومياً حين بدأ يهتم، بعد فترة من زواج بناته، بنساء فتيّات من خارج العائلة. حتى أنه توهّم أخيراً أن الفتاة النائمة قربه تنتمي إلى نساء تلك الفترة. كان العجوز قد انتزع يده ولكن يد الفتاة بقيت جامدة فوق عينيه. وحدها ابنته الصغرى من بين بناته الثلاث قد شاهدت «الكاميلية المنزوعة التبلات» في تسوباكي ـ ديرا خلال رحلة وداع قبل خمسة عشر يوماً من مغادرتها البيت. كان مشهد الكاميلية هو الأكثر إلحاحاً بين الرؤى جميعها. كانت ابنته الصغرى قد سبّبت مشاكل أليمة بشكل خاص في فترة زواجها، لا لأن شابين قد تنافسا على طلب يدها بل لأنها خلال هذه المنافسة فقدت الفتاة عذريتها. دعاها إيغوشي للقيام بهذه الرحلة قبل كل شيء عسى أن تبدّل قراراتها.

تعتبر الكاميلية التي تسقط أزهارها كرؤوس مقطوعة علامة

اللزم، لكن كاميلية تسوباكي ـ ديرا كانت عبارة عن شجرة كبيرة، يقال إن عمرها أربعة قرون وتحمل أزهاراً مختلفة الألوان، وبدل أن تتساقط أزهارها المزدوجة دفعة واحدة، كانت تسقط بتلاتها، لذلك سميت فيما يبدو «الكاميلية المنزوعة البتلات».

قالت زوجة خادم الكاهن الشابة لإيغوشي: «تماماً في الوقت الذي تفقد فيه أزهارها. إنها ترمي ملء خمس أو ست سلال في اليوم!».

كانت كتلة أزهار الكاميلية العملاقة تبدو، حسب قولها، أكثر جمالاً في الضوء غير المباشر مما هي في الضوء المباشر للشمس. كان المنتزه الذي جلس فيه مع ابنته مكشوفاً لجهة الغرب والشمس تأفل. إذاً الشمس خلف الشجرة. كانت أوراق الكاميلية العملاقة في النور المعاكس وافرة جداً، والأزهار في ملء تفتحها من الكثافة بحيث لا تترك لشعاع الشمس الربيعية أن يخترقها. كان نور الشمس ينتشر داخل الشجرة على شكل هالة من الضوء المغيبي متوّجاً هيئتها. كانت التسوباكي ـ ديرا موجودة في حي شعبي صاخب، ولم يكن فيما يبدو شيء آخر تستحق مشاهدته في هذه الحديقة غير الكاميلية العملاقة. والحق أنه لم يستوقفه ولم يلاحظ أي شيء آخر عداها، حتى أنه لم ينتبه لصخب المدينة.

قال لابنته: «يا للأزهار البديعة!»

أجابت زوجة الخادم: «يحدث عند الصباح ألا نرى الأرض لفرط ما هي مكسوّة بالأزهار!». ثم ابتعدت تاركة إيغوشي وابنته لوحدهما. هل كانت الأزهار المختلفة الألوان تنبت حقيقة على الشجرة العملاقة وعليها وحدها؟ كانت هناك أزهار حمراء، بيضاء، وأزهار مزدوجة الألوان، ولكن إيغوشي استغرق في تأمل المجموع بدل الذهاب والتثبّت من الأمر. كانت الكاميلية المعمّرة أربعمائة سنة تبسط وفرة أزهارها الرائعة، وأشعة الشمس الغاربة مسجونة داخل الشجرة كأن سخونة حارة تتصاعد من كتلة الأزهار هذه. ومع أن الريح لم تكن ملحوظة، فإن رؤوس الأزهار تحرّكت بعذوبة بين الفينة والأخرى.

لم تكن الفتاة فيما يظهر مفتونة كأبيها بهذه الشجرة الشهيرة. كانت عيناها شبه مغمضتين كأنها تنظر في داخلها أكثر مما تتأمّل الكاميلية. من بين بناته الثلاث، هي التي أحبّها الأكثر. كانت مدلّلة على طريقة الفتيات الصغيرات وقد ازداد دلالها بعد زواج أختيها الأكبر منها سناً اللتين سألتا أمهما في لذعة من الحسد هل سيتم الاحتفاظ بالابنة الصغرى في البيت لتبنّي صهرٍ ما. أخبرت الزوجة إيغوشي بذلك. كانت الابنة الصغرى ذات طبيعة مرحة. كان والداها يجدان أن وفرة أصدقائها الفتيان أمر طائش، ولكن الفتاة كانت تبدو مفعمة بالحيوية وهي محاطة بهؤلاء الفتيان. وقد لاحظ الوالدان وخصوصاً الأم بأن اثنين من هؤلاء الفتيان مغرمان بها. وقد أفقدها أحدهما عذريّتها، فصارت الفتاة واجمة لفترة في البيت، تثور أعصابها عند أقل

مناسبة، مثلاً عند معالجتها لملابسها الداخلية. وقد لاحظت الأم على الفور أن الفتاة تخفي شيئاً ما. وعندما سألتها بحذاقة اعترفت الفتاة دون أدنى تردّد. كان الشاب يعمل في مخزن كبير ويعيش في شقة. ذهبت الفتاة فيما يبدو إلى شقّته بدعوة منه.

سألت الأم: هل ستتزوجين من هذا الرجل؟

أجابت الفتاة تاركة أمها في حيرة كليّة: «آه! لا. إطلاقاً!».

حدّثت الأم نفسها قائلة لا بدّ أن الشاب أخذها عنوة. فاتحت زوجها بالموضوع وتباحثا في الأمر. وأحسَّ إيغوشي بأنه قد طُعن في أغلى ما عنده. وشدّ ما كانت دهشته حين علم أن ابنته قد خطبت سريعاً إلى الشاب الآخر.

الحّت الزوجة: ما رأيك؟ هل يجب أن نتركها تفعل ذلك؟

ـ هل فاتحت خطيبها بالموضوع؟ هل شرحت له؟ قال إيغوشي بلهجة حازمة

ـ أما هذا فلم أسألها بشأنه. كنت أنا أيضاً مذهولة. هل يجب أن نسألها؟

ـ بالتأكيد لا!

ـ من الأفضل ألا تعترف بهفوة من هذا النوع إلى الشخص الذي ستتزوجه. فالسكوت يبقى الشيء الأقل خطورة. هذا هو الراي العام على الأقل. ومع ذلك، فالأمر مرتبط أيضاً بطبع الفتاة وحالتها النفسية. ربما ستتعذب لوحدها كثيراً، إن هي اخفت ذلك عنه.

ـ أولاً هل سنوافق نحن والديها على هذه الخطوبة؟ هذا ليس أكيداً بعد، أليس كذلك؟.

بطبيعة الحال، لم يكن إيغوشي قادراً على أن يعتبر خطوبتها الفورية بعد أن أغواها شاب إلى شاب آخر أمراً طبيعياً. كان الوالدان قد لاحظا أن الاثنين مغرمان بها. وكلا الشابين يعرفهما إيغوشي إلى درجة أنه ارتأى في كلّ منهما شريكاً مناسباً لابنته. ومع ذلك، ألم تكن الخطوبة المرتجلة للفتاة تعبيراً عن ردّة فعلها على إثر الصدمة التي تلقّتها؟ وهل تحوّلت إلى الثاني من جرّاء غضبها وقرفها وحقدها وامتعاضها من الأول؟ أم أنها بعد أن فقدت أوهامها مع الأول أرادت التشبّث بالثاني في غمرة ضياعها الذاتيّ؟ ليس مستبعداً أن تشعر فتاة مثلها في فورة نفورها من الشاب الذي أغواها بأنها منجذبة بقوة إلى الآخر. أو ربما لم يكن فعلها هذا طريقة للانتقام ولا حتى نوعاً من الفجور يبرّره اليأس جزئياً.

على أية حال، لم يكن إيغوشي يتصوّر أن شيئاً مماثلاً قد يحدث لابنته. هذا ما يعتقده جميع الآباء دون شك. ومهما يكن، فقد كان يبدو مطمئناً وهو يرى هذه الصبيّة بالتحديد محاطة بالفتيان محافظة على بشاشتها، حرّة وواثقة من نفسها. وبالرغم من هذا كله، أدرك عند وقوع الحادثة أن الأمر طبيعي، فجسد ابنته ليس من طينة تختلف عن أجساد بقية النساء. إنه معدّ ليتلقى شريعة الرجل. عندئذ مثلت في ذهنه فجأة المواقف

المزعجة التي تعانيها ابنته في مثل هذه الحالة وانتابه شعور جارف بالخجل والعار. لم يحسّ بشعور مماثل عندما غادرت ابنتاه الكبيرتان في رحلة زواجهما. وفهم أخيراً أنه إذا أمكن لشاب أن يشعر بشغف متأجج نحو ابنته فلأنها كانت ذات تكوين لا يمكن مقاومته. بالنسبة إليه كأب، أكانت هذه حالة نفسية تخرج عن المعتاد؟

لم يوافق مباشرة على الخطوبة ولكنه لم يعارض دون مداراة. لم يعرف الوالدان إلا في وقت متأخر جداً أن الشابين تنافسا بوحشية على طلب يد الفتاة. عندما قرّر اصطحابها إلى كيوتو حيث أعجبتها «الكاميلية المنزوعة التبلات» كان الزواج قد عُيِّن في وقت قريب. كان داخل الكاميلية العملاقة ممتلئاً بطنين غامض. لا بدّ أنه قفير نحل.

انجبت الابنة الصغرى طفلاً بعد سنوات من زواجها. وكان زوجها يبدو مغرماً بهذا الطفل. وحين كان يأتي الزوجان الشابان أحياناً لقضاء عطلة الأحد، وحين تساعد الزوجة أمها في المطبخ، كان الزوج يطعم ابنه رضاعته بلباقة. عند هذا المشهد، أحسّ إيغوشي بأن التفاهم يسود بينهما. ورغم أن المرأة الشابة كانت تسكن في كيوتو مثل والديها، فقد كانت نادراً ما تأتي لزيارتهما. لكن إيغوشي سألها ذات يوم جاءت فيه لوحدها:

«كيف هي الأحوال؟»

اجابت: «ماذا؟ آه! أنا سعيدة». ربما لم يكن الزوجان

الشابان حريصين على إخبار أهلهما بالمشاكل التي تحصـل معهما، ولكن كـان مزاج ابنتـه يسمح لها بأن تكـون ثرثـارة فيـا يخص زوجهـا، فإن إيغـوشي لم يقتنع كلياً بـالجـواب، وبقي شيء ما يقلقـه. والحال أن ابنتـه كـانت كـأنها نضجت وازدادت جمالاً. لنفرض أنه مجرَّد تحوّل فيزيولـوجي يميّز انتقـالها من مـرحلة الفتاة إلى المرأة، إلا أنه لم يكن ممكناً أن تشعّ بهـذا الألق الذي للورود في حال وجود أدنى مشكلة عـلى الصعيد النفسي. لقـد أصبحت بعد ولادة ابنها أكثر إشراقاً كأنها غسلت من الداخـل، واكتسبت نوعاً من النقاء الذاتي.

ألهـذا السبب إذاً كانت الـرؤيا التي مثلت أمـام ذهن إيغوشي، في منـزل «الجميلات النـائمات»؟ وفيـها ذراع الفتـاة ملقـاة فـوق أجفانه، رؤيا الكاميلية المنزوعة التبلات وهي في أوج ازهرارها؟ بـطبيعة الحـال، لا ابنته الصغـرى ولا الفتاة النـائمة هنـا تملكان شيئاً من خصوبة الكاميلية. لكن خصوبة جسد فتـاة من الجنس البشري أمـر لا يمكن معرفتـه لمجرد رؤيتهـا أو التمدّد بـاحتشـام قربها، ولا مقارنته بأي شكل بـأزهار الكـاميلية. مـا كانت تبثّـه ذراع الفتاة في أجفان العجوز مثل إيغوشي هو تيار الحياة، إيقـاع الحياة، دعوة إلى الحياة ورجوع إليهـا. وقد تعبت عينـاه من ثقل الذراع الرازحة فوقهما منذ فترة فأمسكها ورفعها.

فقـدت الفتـاة نقـطة ارتكـازهـا من ذراعهـا اليسـرى، أو أنها قد أحسّت بالانزعاج لالتصاقها الشديد بصدر إيغوشي. فاستدارت من نصفهـا في مواجهتـه. وطوت ذراعيهـا أمام صـدره ثم ضمّت

أصابعها فلامست صدر العجوز. كانت اليدان مضمومتين كأنهما في وضع صلاة، صلاة خاشعة رقيقة. وأمسك العجوز باليدين المضمومتين فشعر كأنه يصلّي هو نفسه، وأغمض عينيه، وربما لم يكن هذا كله شيئاً إلا حزن رجل عجوز في ملامسة فتاة شابّة نائمة.

كان صخب المطر الليلي الذي بدأ ينهمر فوق البحر الهادىء يصل إلى مسامع إيغوشي العجوز. وكذلك هدير بعيد لا يبدو أنه صوت سيارة بل كالرعد العميق الذي نسمعه أحياناً في الشتاء. فرّق إيغوشي يدي الفتاة المضمومتين ثم بسط أصابعها الأربع واحدة واحدة عدا الإبهام وتأمّلها. ساورته رغبة في تناول الأصابع المنبسطة وعضّها. ماذا سيكون موقف الفتاة لو أنها رأت عند الصباح آثار أسنان ودماء؟ أسند إيغوشي ذراع الفتاة إلى جذعها. وإذ ذاك رأى نهديها الممتلئين وحلمتيها المنتفختين بلونها الداكن، كانا متهدّلين قليلاً، رازهما بيديه. لم يكونا دافئين كبقية جسدها داخل الغطاء الكهربائي بل فاترين. رغب في إسناد جبينه إلى المسافة بين نهديها ولكن ما أن قرّب وجهه حتى جعلته رائحة الفتاة يتراجع، فتمدّد على بطنه ثم تناول المنوّم المعدّ له قرب السرير وابتلع هذه المرة القرصين معاً. في الليلة السابقة، وقت زيارته الأولى إلى هذا المنزل، لم يتناول في البدء إلاّ قرصاً واحداً، ثم تناول القرص الثاني بعد إفاقته من كابوس. كان قد لاحظ أن هذا المنوّم غير فعّال. بعد قليل، ما لبث أن غرق في النوم.

أفاق العجوز على شهقات الفتاة القوية. ما سمعه في البدء كنحيب تحوَّل إلى ضحك متواصل. فوضع إيغوشي ذراعه حول صدر الفتاة وهزّها.

«إنه حلم! إنه حلم! بماذا تحلمين الآن؟»

كان السكون الذي تبع القهقهة الطويلة مقلقاً. تناول إيغوشي تحت تأثير المنوّم ساعته الموضوعة قرب الوسادة بصعوبة ونظر إلى الوقت. إنها الثالثة والنصف. وكان أن جذب الفتاة من وركيها إلى صدره ونام في حرارتها.

أيقظه عند الصباح نداء المرأة هذه المرة:

«هل استيقظت؟»

لم يجب إيغوشي. هل تكون المضيفة قد اقتربت من باب الغرفة السرّية وألصقت أذنها إلى الباب؟ عند هذه الفكرة، ارتعد إيغوشي. كانت الفتاة تحسر عن كتفيها بسبب حرارة الغطاء الكهربائي وإحدى ذراعيها موضوعة فوق رأسها، فغطّاها.

«هل استيقظت؟»

أدخل إيغوشي رأسه تحت الغطاء دون أن يجيب. لامس بذقنه حلمة الفتاة. وفي احتدام مفاجىء للرغبة، أحاط ظهرها بيده وجذبها نحوه.

قرعت المضيفة ثلاث ضربات خفيفة على الباب.

«سيدي! سيدي!

- ها إني أستيقظ! في الحال، فقط الوقت لارتداء ملابسي».
تصوَّر لو أنّه لم يردّ لكانت المرأة فتحت الباب ودخلت.

في الغرفة المجاورة أعدّت طشتاً ومعجون أسنان.

سألته المرأة وهي تقدِّم له فطوره:

«ما رأيك؟ الفتاة لطيفة، أليس كذلك؟

- لطيفة، صحيح...» وافق إيغوشي على هذه النقطة، ثم: «في أية ساعة تستيقظ الفتاة؟».

- ماذا؟ في أية ساعة؟

- ألا يمكن أن تسمحي لي بالبقاء هنا حتى تستيقظ؟

- ماذا تقول؟ هذا غير ممكن. قالت المرأة بلهجة أكثر عجلة، حتى زبائننا المداومون لا يفعلون هذا.

- يجدر الاعتراف بأنها لطيفة جداً هذه الصغيرة!

- أليس من الأفضل لك أن تكتفي بالعلاقة التي أقمتها معها وهي نائمة دون أن يشوب هذه العلاقة عاطفة رخيصة؟ هذه الصغيرة تجهل تماماً أنها نامت معك، وهذا لا يسبِّب أية مشكلة.

- صحيح، ولكني أنا أتذكَّر. افرضي أني قابلتها في الشارع...

- ياه! هل في نيّتك التحدّث إليها؟ من الأفضل أن تتجنَّب ذلك. ثم ألا تشعر بأنك ستكون مذنباً؟

ـ مذنب؟ ردَّد إيغوشي الكلمة.

ـ بالضبط!

ـ أنا مذنب؟

ـ كفَّ عن اعتراضاتك إذاً. كُنْ زبوناً عندنا واعتبر الفتاة النائمة فتاة نائمة ليس إلاّ».

رغب إيغوشي في أن يقول لها إنه لم يصبح بعد عجوزاً بائساً إلى الدرجة التي تتصوّرها ولكنه عدل عن ذلك.

يبدو لي أنها أمطرت في الليل.

ـ آه! هل تعتقد؟ لم أشعر بذلك إطلاقاً.

ـ أنا متأكد أنه المطر».

عبر النافذة، فوق البحر، كانت الأمواج البيضاء القريبة من الشاطىء تلمع في الشمس المشرقة.

III

عندما أتى إيغوشي للمرة الثالثة إلى منزل «الجميلات النائمات» كانت ثمانية أيام قد مرّت. كانت الفترة بين الزيارتين الأولى والثانية خمسة عشر يوماً. إذاً اختزلت الفترة إلى النصف.

أيكون إيغوشي قد وقع بدوره شيئاً فشيئاً تحت تأثير سحر فتيات النائمات؟

ـ فتاة هذه الليلة مبتدئة. لعل هذا لا يعجبك ولكن يجدر بك أن تذعن للأمر! قالت المضيفة وهي تسكب الشاي.

ـ واحدة أخرى أيضاً؟

ـ بما أنك اتصلت في اللحظة الأخيرة لقدومك، استعنت بما لديّ. إن كنت تفضًل إحدى الفتيات، أعلمني بذلك قبل يومين أو ثلاثة من فضلك.

ـ آه! حسناً. ولكن ماذا تقصدين بـ «مبتدئة»؟

ـ فتاة جديدة وصغيرة».

انتفض إيغوشي.

«هي ليست معتادة، لذلك خافت وسألتني عن إمكانية أن

تكـون برفقـة فتاة ثـانية، ولكن إذا كـان الزبـون لا يحبّ ذلك، فمن الأفضل تجنّبه.

ـ برفقة فتاة ثانية؟ لن أبالي حتى إذا كانتا اثنتين. ثمَّ كيف لها أن تشعر بالخوف أو بأي شيء من هـذا القبيل وهي مستغـرقة في نوم قاتل؟

ـ هذا صحيح، بالطبع. ولكنّها صغـيرة وغير معتـادة، فارفق بحالها أرجوك.

ـ آه! أنا لن أفعل بها شيئاً.

ـ أعرف هذا جيِّداً.

ـ مبتـدئة! تمتم إيغـوشي العجوز. تحـدث هنا أشيـاء غـريبـة أحياناً!».

شقَّت المرأة الباب مثل كل مرّة، وألقت نظرة، ثم قالت:

«إنها نـائمة، إذاً سـاعة تشـاء!» وغـادرت الغـرفـة. وسكب العجوز فنجاناً آخر من الشاي مسنداً رأسه إلى مرفقه. واجتاحه شعـور بـالفـراغ البـارد. نهض بحـركـة ضجـرة، وفتـح البـاب الفاصل بين الغرفتين وتفحَّص الغرفة السرّية المسدلة الستائر.

كان وجه «البُنيّة» منمنماً. شعـرها المفكـوك والذي يبـدو أنه كان مجدولاً، مبعـثر الآن يغطي أحـد خدّيهـا. ولما كـانت يدهـا تغطّي الخدّ حتى الشفتين فقد بدا وجهها أكثر صغراً. بنيّة بريئـة نـائمة. كـانت يدهـا اليسرى مقلوبة وأصـابعها مـرتخية؛ حـافة اليدين تحت عينها والأصابع ملتوية عـلى طول الأنف والشفتـين؛

الإصبع الوسطى تتخطّى الأصابع الأخرى وتصل حتى أسفل الذقن. أما يدها اليمنى فكانت تستريح على حافة الغطاء. لم تكن متبرّجة إطلاقاً ولا يبدو عليها أنها نزعت زينتها قبل النوم.

اندسّ إيغوشي العجوز برفق إلى جانبها، حريصاً على ألاّ يلمسها. لم ترتعش الفتاة. وقد أخذت حرارتها، بمعزل عن حرارة الغطاء، تلفّ العجوز. حرارة غير يانعة، فظّة. ربما كانت رائحة الشعر والبشرة تمنح هذا الانطباع ولكن ليس هذا فقط.

«حوالي السادسة عشرة من عمرها؟»، تمتم العجوز. يأتي إلى هذا المنزل مسنّون باتوا عاجزين عن معاملة المرأة كامرأة، ولكن أليس النوم الهادىء إلى جانب فتاة مماثلة، تعزية وهمية في سعيهم الدائم وراء مباهج الحياة الغاربة؟ هذا ما أدركه إيغوشي لحظة زيارته الثالثة. ربما كان هناك عجائز يتمنّون في قرارة أنفسهم أن يناموا هم أيضاً نوماً أبدياً إلى جانب فتاة نائمة. إنّ إغواء قلب ميت لعجوز عبر جسد فتاة شابة هو مشروع محزن للغاية. هذا صحيح إذا افترضنا أن إيغوشي هو الأكثر حساسية بين العجائز الذين يتردّدون إلى هذا المنزل، فهم في أكثريتهم لا يتوقون إلاّ إلى شباب الفتاة النائمة وإلى التمتّع بامرأة لا تملك أن تستيقظ.

قرب السرير قرصا المنوّم الأبيضان كالعادة، أخذهما إيغوشي بين أصابعه. لم يكن في وسعه معرفة اسم المخدّر لأن الأقراص لا تحمل اسماً أو علامة. ومن البديهي أنه ليس المخدّر نفسه

الـذي أُعـطي للفتـاة أو الـذي حُقِنت بـه. وقـد تسـاءل، هـل سيحاول في المرة المقبلة أن يحصل من المضيفة على المخدّر نفسـه الذي أُعطي للفتـاة؟ شعر بـأنه من غـير الممكن أن تعطيـه منه، ولكن لنفرض أن هذا وقع فعلاً، فما الذي سيحدث لو غرق هو أيضاً في نوم قاتل؟ راقت له الفكرة.

«الغرق في نوم قاتل!»

أيقـظت هـذه الكلمات فيـه ذكـرى امـرأة. في العـام قبـل المنصرم، أثنـاء الربيـع، اصـطحب إيغـوشي فتـاة إلى فنـدق في كـوب. كان قـد اصطحبهـا من ملهى ليلي، والسـاعة جـاوزت منتصف الليل. وشرب من قنينة الـويسكي الموجـودة في الغرفـة وقـدّم منها للمـرأة أيضاً. شربت قـدر ما شرب هـو. ثم ارتدى إيغوشي المبذل القـطني الخاص بـالفندق. ولما لم يكن ثمة مبـذل ثانٍ للمرأة فقد اضطجعت على السرير بملابسها الداخلية. وضع ذراعيـه حول عنقهـا. حين وقفت، راح يـداعب ظهـرهـا وهـو مضطرب للغاية.

«لن أستطيع أن أنام بهذه الملابس!» ثم انتزعت كـل ما كـان على جسدها ورمته على كرسي أمـام المرآة. دهش إيغـوشي قليلاً ولكنه فكّر بأن تلك ربما كانت عادة البيض. ومن جهـة أخرى، أظهرت المرأة طاعة عجيبة. قال إيغوشي وهو يفكّ عناقه:

«مرّة بعد. . . ؟

ـ أنت تغشّ! أنت تغشّ يا سيد إيغوشي!» ردّدت المرأة وما لبثت أن استسلمت له منقادة. نام إيغوشي على الفور وقد دوّخه السكر. واستيقظ في صباح اليوم التالي على حركات المرأة. كانت واقفة أمام المرآة تسوّي شعرها.

«لا يزال الوقت مبكراً للغاية!

ـ لكن لديّ أولاد.

ـ أولاد؟

ـ أجل! اثنان! صغيران!

ثم غادرت معجلة قبل أن ينهض العجوز.

أن تكون هذه المرأة بجسدها الرشيق والصلب أمّاً لطفلين، مسألة أدهشت إيغوشي العجوز. فإن جسدها لم يكن يوحي بذلك، وثدييها كأنهما لم يُرضعا إطلاقاً.

عندما فتح حقيبته ليرتدي قميصاً نظيفاً للخروج، وجد محتواها مرتّباً بعناية. كان خلال الأيام العشرة لإقامته يدسّ في داخلها الغسيل الوسخ المدعوك، يقلب الأشياء كلها رأساً على عقب كلما أراد أن يتناول أي شيء منها، ويرمي فيها الهدايا التي اشتراها أو تلقّاها في كوب. كان كل ذلك يشكّل كتلة مشوّشة حتى أن الحقيبة لم تعد تقفل. ولا بدّ أن المرأة رأت تلك الفوضى العارمة لأن الغطاء بقي مرفوعاً حين انتشل علبة سجائره. ولكن، كيف خطرت لها فكرة ترتيب محتواها؟ وكيف تسنّى لها الوقت؟ حتى الملابس الداخلية المرميّة في كل مكان كانت هي

أيضاً مطويّة بعناية؛ ومن البديهي أن هذا يستلزم وقتاً بالنسبة لامرأة. أتراها لم تقدر على النوم البارحة مساء فنهضت ورتّبت الحقيبة بعد نوم إيغوشي؟

دمدم العجوز وهو يتأمّل محتوى الحقيبة المرتّب بلباقة: «احم! ماذا كانت تنوي من وراء ذلك؟».

مساء اليوم التالي، وافته المرأة إلى مطعم للمآكل اليابانية وهي ترتدي الكيمونو، بناء على موعد سابق.

هل يحدث أن ترتدي الكيمونو؟

ـ نعم، من وقت لآخر. قالت بابتسامة خجولة. هذا لا يلائمني. حوالي الظهر اتصلت بي صديقة لي، لقد تأثّرت جداً. قلت لي بأن هذا لا يضايقك، صحيح؟

ـ هل أخبرتها؟

ـ نعم، فأنا لا أخفي عنها شيئاً».

في المدينة، اشترى لها إيغوشي قماشاً لفستان وحزام ثم رجعا إلى الفندق. كان إيغوشي واقفاً قرب النافذة التي لمح عبرها أضواء المراكب الراسية في الميناء. وأخذ يقفل الشبابيك والستائر وهو يقبّل المرأة. أشار إلى قنينة الويسكي كما البارحة ولكنها هزّت رأسها. قاومت مصمّمة المحافظة على هدوء أعصابها، ثم نامت كمن يغرق في قعر الماء. في صباح اليوم الثاني، فتحت المرأة عينيها عندما أفاق إيغوشي. قالت له:

«آه! نمت نوماً قاتلاً! أجل، نوماً قاتلاً حقاً!»

مكثت جامدة، عيناها شاخصتان، صافيتان ورطبتان.

كانت تعرف أنه سيرجع في هذا اليوم إلى طوكيو. كان زوجها وكيلاً لشركة تجارية أجنبية، اقترن بها عندما كان يشغل مركزاً في كوب. أخبرته بذلك مساء البارحة. وحتى ذلك الوقت، كان إيغوشي يجهل أن المرأة الشابّة متزوّجة أو أنها زوجة رجل أجنبيّ. كانت بالنسبة له فريسة اصطادها بسهولة من ملهى ليلي. حين دخل إلى هذا الملهى لأنه لم يكن لديه ما يفعله، كان هناك رجلان أوروبيان وأربع يابانيات. وبما أنه يعرف بالرؤية واحدة منهن في منتصف العمر، حيّاها. كانت هي فيما يبدو قائدة الفريق. عندما نهض الأجنبيان للرقص، قدّمت إليه المرأة الشابّة ودعته ليشاركها الرقص. دعاها إيغوشي في منتصف الرقصة الثانية للتواري معه. ضحكت المرأة كأنّ الأمر مجرّد دعابة. وإذ أتت إلى الفندق ببساطة، فقد جاء دور إيغوشي ليحسّ نفسه مرتبكاً عند دخوله إلى الغرفة.

هكذا وصل الأمر بإيغوشي لأن يتصرّف بطريقة غير لائقة مع امرأة متزوّجة، ومع زوجة يابانية لأجنبي فوق ذلك. كانت المرأة تبدو ميّالة للتغيّب عن المنزل تاركة أطفالها في رعاية حاضنة أو مربية أولاد. لم يكن يجدر بإيغوشي أن يشعر جدياً بعدم اللياقة لأن هذه المرأة لا تظهر شيئاً من التحفّظات الخاصة بالنساء المتزوّجات، ومع ذلك فإن ندماً مبهماً انزلق إلى أعماق كيانه. لكن سماعه المرأة تقول بأنها غرقت في نوم قاتل وفرحتها وهي

تقـول ذلك، بقي في ذاكـرته كنغمـة موسيقيـة طفوليـة. كان في الرابعة والستين آنذاك، والمرأة في الرابعـة والعشرين أو الخامسة والعشرين أو السابعة والعشرين أو الثامنة والعشرين. وفي النهاية تساءل الرجل العجوز هل كانت هذه آخر مـرة يقيم فيها عـلاقة مـع امرأة شـابة حتى ولـو كان الأمـر لليلتين أو لليلة واحـدة عـلى الوجه الأصحّ، فهو لم يعد يستطيع نسيان تلك الليلة التي غرقت فيها المرأة في نوم قاتل. كانت قد بعثت له برسالـة وكتبت له أنها تحبّ رؤيته من جديد إذا رجع إلى الكانساي. وبعـد شهر بعثت له برسالة أخرى تخبره فيها أن زوجها رجع إلى كوب، وأن هـذا لا أهميـة له وأنها تـودّ رغم ذلك رؤيتـه من جديـد. ثم بعثت له برسالة مماثلة بعد أكثر من شهر. بعد ذلك توقّفت عن مراسلته.

«في الحقيقة، ربّما وجدت نفسها حاملاً للمـرة الثالثـة... لا بدّ أن هذا هو السبب!»

هذا ما تمتمه إيغوشي بعد ثلاث سنوات عندما تذكّـر تلك المرأة وهو مستلقٍ إلى جانب فتاة مستغرقة في نوم قاتل. لغـاية اليـوم لم تراوده الفكرة إطلاقاً، فلماذا تنبّـه لها الآن فجـأة؟ كان هـو نفسه متحـيراً، ولكن عندمـا حاول أن يجمّـع ذكريـاته وجـد أنه عـلى صـواب فعلاً. ألم تتـوقّف عن إخبـاره عن شؤونها لأنها وجـدت نفسها حاملاً؟ هذا هو الأمر بالتأكيد! عند هـذه الفكرة شعـر أن ابتسامة تطفو على وجهه. أن تكون المرأة قـد حبلت بعد رجـوع زوجهـا من سنغافـورة، فهذا يعني أنها تـطهّرت من فسقهـا مـع

إيغوشي، الأمر الذي أراحه. مع ذلك، شعر بشيء من الحنين إلى جسد هذه المرأة غير مصحوب بأي شعور جنسي. بدا له جسدها الصلب، الناعم، المتناسق، رمزاً للصبا الأنثوي. لم يكن حبلها المفترض إلاّ مجرّد حدس مفاجىء غير مشكوك به يضاهي حقيقة بديهية.

«يا سيد إيغوشي، هل تحبّني؟»، سألته المرأة في الفندق.

ـ بالتأكيد أحبّك! أجاب إيغوشي، هذا ما تسأله عادة جميع النساء!

ـ «ومع ذلك، هل...»، قالت المرأة وصمتت قبل أن تكمل جملتها.

ـ «ألن تسأليني ما الذي يعجبني فيك؟»، قال العجوز هازئاً.

ـ آه! حسناً. دعك من هذا.

عندما سمع إيغوشي المرأة تسأله هل يحبّها، شعر أنه يحبّها حقاً. وفي الواقع لم ينسَ الآن، بعد ثلاث سنوات أنها طرحت عليه هذا السؤال. تراها لا زالت تحتفظ بعد إنجابها طفلها الثالث بجسدها الذي لا يبدو عليه أنه أنجب من قبل؟ وقد اعتراه التحسّر على تلك المرأة.

بدا العجوز كأنه نسي الفتاة النائمة إلى جانبه، مع أنها كانت السبب في تذكّره امرأة كوب. انزعج من مرفق الفتاة التي أسندت يدها إلى خدّها، فأمسك معصمها ومدّد ذراعها تحت

لغطاء. كانت قد كشفت عن كتفها بسبب حرارة الغطاء. كانت استدارة الكتف الطفولية قريبة جداً من عيني إيغوشي حتى نها حجبت عنه الرؤية. وقد أحسَّ أن هذه الاستدارة تتلاءم وراحة يده فرغب في إمساكها، لكنه ما لبث أن تراجع. وراقب لوح كتفها البارزة عظامه فرغب في ملامسته متتبِّعاً دائرة العظام ولكنه تراجع كذلك. وما كان منه في النهاية إلاَّ أن رفع برقّة شعرها الذي يغطي خدّها الأيمن. كان النور الغامض، المتساقط من السقف والذي تعكسه الستارة المخملية التي تلفّ الحيطان الأربعة، يجعل وجه الفتاة أكثر عذوبة. حاجباها طبيعيان وأهدابها الطويلة رائعة، يمكن إمساكها برؤوس الأصابع. منتصف شفتها السفلى مكتنز وأسنانها مختفية.

آل الأمر بإيغوشي العجوز إلى التفكير وهو في هذا المنزل، أن لا شيء أجمل من الوجه البارد لامرأة شابة نائمة. أليس هو التعزية الكبرى التي يمكن أن يهبها هذا العالم؟ حتى المرأة الأكثر جمالاً لا تقدر على إخفاء عمرها عندما تكون نائمة. أما الوجه الفتيّ فهو عذبٌ في حالة النوم، حتى ولو لم تكن صاحبته جميلة. ربّما لهذا السبب لا يختارون في هذا المنزل إلاَّ فتيات جميلات المنظر عند النوم. واكتفى إيغوشي بمراقبة الوجه المنمنم عن كثب وبدا له عندئذ أن حياته الشخصية وهمومها اليومية التافهة تتلاشى. كان يكفيه، دون شك، أن يأخذ المنوم ليرقد وهو في هذه الحالة النفسية، متمتّعاً بهناء هذه الليلة المباركة، ولكن العجوز أغمض عينيه بهدوء وبقي جامداً. كانت هذه الفتاة قد

أوحت إليه بذكرى امرأة كوب، فشعر بأنها سوف تمدّه بذكريات أخرى يوشك النعاس أن يضيّعها.

الحدس المفاجىء بأنّ امرأة كوب الشابّة يمكن أن تكون قد حبلت عند رجوع زوجها بعد سنتين من الغياب، والإحساس بأن هذا الحدس متطابق مع الحقيقة لا بدّ قد فرضا نفسهما على العجوز، فلم يعد بإمكانه التحرّر منهما. وفكّر إيغوشي أن مغامرتها معه لا يمكن أن تلحق أيّ عار أو دناءة بالطفل الذي حبلت به وأنجبته. وإذ اعتبر أن حبلها بالطفل ووضعها إيّاه أكيدان، أحسّ بقدسية المسألة. إن في أحشاء تلك المرأة حياة جديدة تعيش وتتحرّك. وشعر أنه لم يدرك إلاّ في هذه اللحظة بالذات شيخوخته الفعلية. ولكن لماذا استسلمت هذه المرأة له بسهولة تامة دون قرف أو تحفّظ؟ كما لو أن إيغوشي لم يعش سبعين عاماً تقريباً. لم يشعر بأن هذه المرأة تافهة أو أنها تبيع نفسها. أحسّ أنه في جميع الأحوال أقلّ ذنباً معها مما هو عليه هنا في هذا المنزل، مستلقياً إلى جانب بنيّة غارقة في رقاد مشبوه. حتى طريقتها في الإسراع، صباح اليوم التالي للرجوع إلى صغارها، كانت مفعمة بالحيوية. ولقد راقبها إيغوشي بإعجاب من سريره. ولعلّ فكرة أنها قد تكون آخر عشيقة شابّة في حياته قد جعلتها غير قابلة للنسيان، ولعلّها هي أيضاً لم تنسَ إيغوشي العجوز. كلاهما لن ينسى ذلك، دون أن يكون أحدهما قد اضطرّ لخرج الآخر في الصميم، حتى ولو احتفظ بالسر طيلة حياته.

إنه لأمر غريب أن تثير فيه الآن هذه الصغيرة المبتدئة وحدها من بين «الجميلات النائمات» الذكرى المميّزة لامرأة كوب. وفتح عينيه من جديد، فداعب بإصبعه أهداب الفتاة. وكان أن قطّبت حاجبيها، وعندما أدارت وجهها انفرجت شفتاها. تقلّص لسانها الملتصق بحنكها الأسفل كأنه غارق في قرار فمها. كان في منتصف هذا اللسان الطفولي ثغرة ظريفة. أحسَّ إيغوشي بالإغواء وهو يتأمّل فم الفتاة المفتوح. هل سيختلج هذا اللسان الصغير لو أنه شدّ على عنقها؟ تذكّر عندها أنه التقى قديماً بعاهرة أصغر سناً من هذه الفتاة. لم يكن يميل إلى هذه الأنواع ولكنه كان الضيف وتلك الفتاة ألصقت به. كانت تستخدم لسانها الرقيق الحاد ذا الطعم الغثّ، ففقد إيغوشي حماسه. وصلت إليه من الشارع ضجة طبول وزمامير لإثارته. كانت ليلة عيد فيما يبدو. وعينا الفتاة كانتا لوزيّتين ووجهها مبتهجاً، لكنها لم تحسن عملها لأن الزبون لم يكن يهمها.

قال إيغوشي: «إنه العيد أليس كذلك؟ ألا تريدين اللحاق به بسرعة قصوى؟

ـ آه! أنت على الأقل تفهم! نعم، هذا صحيح! كنت على موعد مع صديقاتي ولكنهم أتوا بي إلى هنا.

ـ حسناً، لا عليك! قال إيغوشي وقد أنف لسان الفتاة البارد والغثّ. حسناً أقول لك، اذهبي بسرعة! إلى المعبد حيث تُقرع الطبول.

ـ ولكن «المعلّمة» ستؤنّبني!
ـ لا عليك، أنا أتكفّل بتسوية ذلك!
ـ آه حسناً، هذا صحيح؟
ـ كم عمرك؟
ـ أربعة عشر عاماً».

لم تكن الفتاة تظهر أيّ حرج من الرجل ولم تكن تشعر لا بالذل ولا بالانزعاج. كانت غير مبالية تماماً. تبرّجت على عجل وهرعت للحاق بالعيد في الشارع دون أن تطالب بنصيبها منه. وبقي إيغوشي لوقت طويل يدخّن مصغياً إلى الطبول والزمامير والعبارات المنمّقة لأصحاب تخشيبات العيد الشعبي.

كم كان عمره آنذاك؟ لم يعد يتذكّر. ولكن لما كان قد ترك الفتاة تذهب إلى العيد دونما أسف، فهذا يعني أنه لم يكن العجوز الذي صاره اليوم. أما فتاة هذه الليلة فتكبر تلك الفتاة بسنتين أو ثلاث، وبالمقارنة معها، فشكلها أكثر أنثوية واستدارة. أما الفارق الشاسع بينهما فهو أن هذه الفتاة نائمة ولن تفيق بأي حال من الأحوال. حتى لو قرعت طبول العيد، فإنها لن تسمعها.

أرهف السمع وبدا له أن ريح الشتاء تزحف منهكة القوى فوق الجبال المشرفة على البحر. وخرج لهاث فاتر من شفتي الفتاة المنفرجتين ملامساً وجهه. كان الضوء الذي يعكسه المخمل القرمزي يخترق فم الفتاة إلى الداخل. لم يكن لسانها يوحي بأنه

غثّ وبارد كلسان تلك الفتاة. وصار الإغواء الذي راود العجوز أكثر حدّة. كانت هذه هي الفتاة الوحيدة في منزل «الجميلات النائمات» التي تركت لسانها يُسْتَشفّ من فمها. وقد شعر بإغواء الإثم، القادر على إثارة عجوز، وهو أكثر من مجرَّد رغبة في وضع إصبعه داخل فمها وملامسة لسانها، يرتعش في صدره.

غير أن هذا الإثم، هذا الشيء الفظيع المصحوب برعب يرتعد، كان يطفو على روح إيغوشي دون أن يتخذ شكلاً محدداً. ما هو في الحقيقة الإثم الفظيع الذي يمكن لرجل أن يرتكبه في حق امرأة؟ إن مغامرته مثلاً مع المرأة المتزوِّجة في كوب أو مع عاهرة الأربعة عشر عاماً، لم تشغله سوى لحظة قصيرة وسط حياة طويلة ما لبثت اللحظة التالية أن جرفتها في تيّارها. أن تكون لديه زوجة، أن يسهر على تربية بناته، هذا ما يعتبره الجميع فضيلة، ومع ذلك فهو قد أعاق مسارهنَّ الزمني وهيمن على حياتهن الأنثوية إلى درجة أنه غيَّر حتى سجاياهن: إذا نظرنا إلى الموضوع من وجهة النظر هذه، ألا يصحّ إذاً أنه ارتكب شرّاً بحقهن؟ ربما الخلط بين العادات المتبعة والإبقاء على النظام هو الذي يعمل على تمويه معنى الشرّ.

إن الاستلقاء قرب فتاة مخدّرة إثم دون شك. لنفرض أنه قتلها، هذا أيضاً إثم وأكثر وضوحاً كذلك. أن يخنق الفتاة، أن يطبق على فمها وأنفها مخمداً أنفاسها، أمر في غاية السهولة. ولكن الفتاة نائمة بلسانها الطفولي البارز من فمها المفتوح. لو

وضع إيغوشي يده هناك لبدا اللسان مستعداً للتكوّر كلسان طفل يرضع.. وكان أن وضع يده بين أنفها وذقنها مغلقاً فمها. عندما نزع يده، انفرجت شفتا الفتاة من جديد. رأى العجوز أن السحر الذي تحتفظ به الفتاة النائمة بفمها المفتوح خير دلالة على صباها.

لعلّ إغواء الشرّ الذي أحسّه يتململ في قلبه هو ردّة فعل مبعثها يفاعة الفتاة. لكن بوسعنا التفكير أن من بين العجائز الذين يتردّدون على منزل «الجميلات النائمات» من لا يأتون فقط ليجترّوا الحسرات بأسى على شبابهم المفقود، بل لينسوا الآثام التي ارتكبوها على مدى الأيام. إن العجوز كيغا، الذي عرّف إيغوشي على المنزل، لم يبح بطبيعة الحال بأية أسرار عن الزبائن الآخرين. وغالب الظن أن أعضاء هذا النادي لا يمكن أن يكونوا كثيرين. ويمكن التكهّن بأن هؤلاء العجائز ليسوا بالضرورة أناساً فاشلين في حياتهم، بل هم ناجحون وفقاً للرأي العام. ولكن ربّما كان بعضهم قد أكّد هذا النجاح بارتكابه الشرّ ولم يضمنه إلاّ في معاودة آثامه. هؤلاء لا تعرف قلوبهم الطمأنينة بل هم قلقون منهزمون. إن ما يختلج في أفئدتهم وهم مستلقون لصق صبيّة عارية نائمة ربّما كان عائداً إلى الرعب من الموت القريب أو التحسّر اللاجدي على ربيعهم المفقود. أو لعلّه الندم على أعمالهم الفاسدة السابقة والمصائب العائلية الشائعة عند الناس الناجحين. ربّما ليس هناك بوذا للعجائز كي يبتهلوا إليه راكعين، ولكن فتاة عارية جميلة يضمّونها بين أذرعهم ذارفين

دموعاً باردة، غارقين في شهقات قوية، منتحبين؛ فتاة غافلة عن كل شيء ولن تستفيق مطلقاً، تمنحهم حريتهم المطلقة في الندم، حريتهم المطلقة في النحيب دون أن يضطروا للشعور بأي خجل أو طعن لكبريائهم. أفلا يمكن إذاً اعتبار الجميلات النائمات من هذه الوجهة إلهات مثل بوذا ونابضات بالحياة فوق ذلك؟ أليست رائحة فتاة شابة وبشرتها تكفيراً للعجائز التاعسين وتعزية لهم؟

عندما انبجست في داخل إيغوشي هذه الأفكار، أغمض عينيه بهدوء. أليس غريباً بما فيه الكفاية أن تثير فتاة هذه الليلة الأكثر فتوة وشباباً والأقلّ دربة، وحدها من بين «الجميلات النائمات» الثلاث اللواتي عرفهن حتى الآن، أفكاراً كهذه في ذهنه. وكان أن أخذها العجوز بين ذراعيه بعد أن حاذر حتى الآن ملامستها. بدا له أن بإمكان جسده أن يغمرها كلياً. كانت مسلوبة من أي قوة أو مقاومة ونحيلة إلى درجة الإشفاق. هل أحسّت بملامسة إيغوشي وهي في قعر نومها؟ على أية حال أغلقت الفتاة شفتيها. كان عظم وركها الحاد يسبِّب إزعاجاً للعجوز.

«أية مشاكل يمكن لهذه الفتاة الصغيرة أن تواجه في حياتها؟ هل ستنعم بحياة مطمئنة بمعزل عمّا يسمّى نجاحاً أو حظوة؟

هذه هي الأفكار التي راودته. إن بإمكان العجائز أن يدْعوا لها كي تصادف السعادة في حياتها عرفاناً بالجميل مقابل التعزيات التي تمنحهم إيّاها، ولكن ألا يعقل أن نتخيَّل هذه

الفتاة، كما في الخرافات القديمة، مجرَّد انمساخ لبوذا ما؟ ألم توجد في الحقيقة خرافات تظهر فيها عاهرات ومغويات كأنهن تجسيدات لبوذا؟

ضغط إيغوشي العجوز برفق على خصل شعر الفتاة المنسدلة، وجهد لاستعادة هدوئه محاولاً أن يعترف لنفسه بفساده وأخطاء ماضيه. لكن لم يستعد في ذهنه إلاّ ذكرى نساء ذلك الماضي. لم يكن ليلذّ للعجوز أن يتذكّر في فترة علاقاته بهن، سواء العلاقات الطويلة أو تلك القصيرة، جمالهن أو بشاعتهن، ولا ذكاءهن أو غباءهن، ولا تميّزهن أو تفاهتهن، ولا أي شيء من هذا القبيل. بل كان يلذّ له تذكّر نساء من صنف المرأة المتزوِّجة في كوب مثلاً والتي قالت:

- «آه! لقد نمت نوماً قاتلاً! نوماً قاتلاً حقاً!».

نساء كنّ يستجبن لمداعباته بكل ما فيهن من أحاسيس، ناسيات أنفسهن، هاذيات دون وعي في نشوتهن، بشكل أبعد من حب المرأة العميق، يشير إلى وجود استعدادات فطرية لديهن. كيف ستصبح هذه الفتاة الصغيرة غداً حين تنضج؟ قال العجوز في نفسه ومرّر يده على ظهرها. لكن أنّى له الإجابة على هذا السؤال؟ كان إيغوشي قد تساءل المرة السابقة في هذا المنزل، وهو إلى جانب الفتاة التي تبدو كأنّها أداة إثارة، إلى أي حدٍّ استطاع على مدى سنواته السبع والستين أن يسبر سعة الرغبات الانسانية وعمقها؛ ثم شعر أن هذه الفكرة دلالة على

عجزه الخاص. أما فتاة هذه الليلة، ويا للغرابة، فقد سمحت له أن يستعيد ماضيه الجنسي بحدّة. وقد وضع العجوز شفتيه برفق على شفتي الفتاة المطبقتين. لم يكن لهما أي طعم بل كانتا جافّتين. وخلافاً لما هو متوقّع، بدا له غياب طعمهما لذيذاً. ربما لن يرى إيغوشي ثانية هذه الفتاة، وسيكون ميتاً حين تختلج شفتاها لترويها الرغبة، هذا الأمر أيضاً لم يحزنه. وكان أن أبعد العجوز شفتيه عن شفتي الفتاة وقرّبهما من حاجبيها وأهدابها. هل تدغدغت؟ ذلك أن وجهها تحرَّك بشكل خفيف وأسندت جبينها إلى عيني العجوز، فشدَّ عينيه المغمضتين أكثر على جبين الفتاة.

طغت تحت أجفانه رؤى جامحة، ثم اختفت لتتخذ أخيراً أشكالاً محدّدة. عبرت أسهم ذهبية قريباً جداً وفي أحد رؤوسها علّقت أزهار زنبق أرجوانية داكنة. أما في الطرف الآخر فأزهار قتلايا من جميع الألوان. كان المشهد رائعاً. ولكن كيف أمكن للأسهم الطيران بهذه السرعة ولا تتساقط الأزهار! عجيب أنها لم تسقط. فتح إيغوشي عينيه متحيّراً وهو بعد على حافة النوم.

لم يكن قد تناول المنوّم بعد. نظر إلى ساعته الموضوعة قرب القرصين المنوّمين، الساعة تجاوزت الثانية عشرة والنصف. أخذ العجوز القرصين في راحة يده؛ ولكن بما أن قرف العيش لا يرهقه هذه الليلة ولا الوحدة ولا الشيخوخة، فقد عزَّ عليه أن ينام. كانت الفتاة تتنفّس بهدوء وهي نائمة. ماذا يمكن أن تكون

قد ابتلعت أو بماذا حُقنت؟ لم يكن يبدو عليها إطلاقاً أنها تتألّم. هل أُعطيت جرعة كبيرة من المنوّم أم من مخدّر خفيف؟ ورغب إيغوشي في الاستغراق ولو لمرّة في نوم عميق مماثل. فترك سريره بهدوء وغادر غرفة المخمل القرمزي إلى الغرفة الأخرى. كبس على جرس الاستدعاء وفي نيته أن يطلب من المضيفة من المخدّر نفسه الذي أُعطي للفتاة. كانت الجلجلة المتكرّرة للجرس كافية لإعلامه بركون البيت والخارج. تردّد طويلاً في الرنّ على جرس الاستدعاء في هذا المنزل الغامض والليل في إبانه. ومع أن مناخ هذه الناحية دافىء والأوراق المتساقطة في الشتاء تبقى متقوقعة على الأغصان، إلاّ أن حفيف الأوراق اليابسة كان يسمع في الحديقة عند أقل نسمة. كانت الأمواج التي تتلاطم عند الأسفل قد هدأت هي أيضاً هذه الليلة، والسكون اللاانساني يمنح هذا المنزل طابع قصر مسكون. أحسَّ العجوز برعشة باردة تعبر كتفيه، خصوصاً وأنه خرج في المبذل القطني.

عندما عاد إلى الغرفة السريّة، وجد خدّي الفتاة متورّدين. هذا تحت تأثير الشباب لأن حرارة الغطاء مضبوطة على درجة منخفضة. والتصق العجوز بها. كانت الفتاة فاترة تكشف عن صدرها فيما رأس قدمها خارج الغطاء.

«ستصابين بالزكام!» قال إيغوشي شاعراً بالفرق الشاسع بين عمرهما. الفتاة صغيرة ودافئة ويمكنها أن تتكوّر كلها لتصير في راحة إيغوشي.

في الصباح وعندما كانت المضيفة تقدّم له إفطاره قال:

«الليلة الفائتة، كبست على الجرس، هل شعرت بذلك؟ كنت أودّ الحصول على المخدّر نفسه الذي أعطي للفتاة لأني شعرت برغبة الاستغراق في رقاد مشابه لرقادها.

ـ هذا ممنوع! وفوق ذلك، هذا خطير بالنسبة لسنّك.

ـ قلبي صلب، اطمئني! وإذا اتفق ونمت نوماً أبدياً فلن أتذمّر!

ـ ها انك تقصّ غرائبك رغم أنها المرة الثالثة فقط التي تشرّفنا فيها بقدومك!

ـ بالمناسبة، ما هي النزوة القصوى التي يمكن لهذا المنزل أن يسمح بها؟

حدجت المرأة إيغوشي العجوز بنظرة خبيثة، ثم طغت على شفتيها ابتسامة خفيفة.

IV

عند الغسق، بدأت سماء الشتاء المكفهرّة منذ الصباح ترسل رذاذاً تبعه ثلج ذائب. لم ينتبه إيغوشي إلى ذلك إلاّ بعد اجتيازه بوابة منزل «الجميلات النائمات». أغلقت المرأة البوابة بالمزلاج. بانت رقع ثلجية بيضاء ممزوجة بالمطر على ضوء البطارية التي كان يحملها لتوجيه خطواته. كانت هذه الرقع قليلة ومائعة، ما أن تتساقط حتى تذوب على الحجارة المسطّحة الموصلة إلى المدخل.

«البلاط رطب، حاذرْ!» قالت المرأة التي أمسكت المظلّة لتقيه من المطر بيد، وحاولت باليد الثانية الإمساك بيد العجوز. شعر بأن البرودة المقرفة لهذه المرأة الناضجة تخترقه عبر القفاز.

«لا تقلقي من ناحيتي، أنا في أحسن حال!» قال إيغوشي وهو يفلت منها بحركة عنيفة، لم أصر بعد عجوزاً إلى درجة أن أحتاج لأن يمسكني أحد.

ـ ولكن البلاط زلق. قالت المرأة.

كان حول البلاط، أوراق قيقب أهمل تكنيسها انتشرت متقلّصة وباهتة اللون ولكن لامعة تحت المطر.

«هـل تستقبلون هنا أيضـاً شيوخـاً خرفـين، يجدر إمسـاكهم بيـدهم أو حملهم لأنهم مصـابـون بشلل في الـذراع مثـلاً أو في الساق؟ سأل إيغوشي العجوز المرأة.

ـ أعفِ نفسك من طرح الأسئلة بشأن الزبائن الآخرين.

ـ على كل حال، الأمر يغدو خطيراً لعجـائز من هـذا الصنف الآن مع قدوم الشتاء. ما الذي سيحدث لو افترضنـا أن أحدهـم مات هنا على أثر سكتة دماغية أو قلبية؟

ـ إذا اتفق وحدث أمر مماثل فيجدر بنا عنـدئذ إقفـال المنزل. مـع أنها قد تكـون نهايـة سعيـدة للزبـون!.... أجـابت المـرأة بلهجة قاسية.

ـ ولكنك أنت أيضاً لن تتخلّصي من الورطة بسهولة!

ـ آه! هكذا إذاً.

ما عسى أن تكون سوابق هذه المرأة؟ لم تتذمّر على أية حال.

وَلجا كالعادة في البداية الغرفة الأولى. حلّت في «التوكـونومـا» صورة لمنظر شتائي كما هو مفروض مكان المشهد الجبلي بأشجـاره الخريفية. كان جلياً أن هذه اللوحة أيضاً نسخة عن الأصلية.

قالت المرأة وهي تحضّر بلباقة شاياً ممتازاً:

ـ لقد اتصلت هذه المرّة أيضاً في اللحـظة الأخيرة يـا سيدي. هل لأن واحدة من الفتيات الثلاث لم تعجبك؟

ـ بالعكس، الفتيات ثـلاثتهن أعجبنني، بل أعجبنني كثـيراً. أؤكّد لك!

- في هذه الحالـة، يمكنك أن تـأخذ مـوعداً مـع واحدة منهن ولكن قبل يومين أو ثلاثة على الأقل... أنت متقلّب يا سيدي!
- هل يمكننا أن نصف هذا تقلّباً؟ مـع فتاة نـائمة؟ ألا تجْهـل الشريكة كل شيء؟ ما يهمّها من الرجل الذي ستنام معه؟
- حتى وإن كانت نائمة فهي امرأة حيّة، لذلك...
- هل هناك صغيرات يهمهنّ أن يعرفن مع أي عجوز أمضين ليلتهن؟

- لا مجـال إطلاقـاً لأن نقول لهن ذلـك. إنها عادة صـارمة في هذا المنزل. أرجوك، لا تذهب بأفكارك بعيداً!
- في الـواقع، كنت قـد لُمحت لي في المرة السـابقـة أن التعلّق كثيراً بفتاة واحدة أمر مـزعج. عليـك أن تتذكّـري أنك قلت لي عن «التقلّب» ما أعيده تقريباً هذا المساء. والآن تقـولين العكس تمـاماً! يـا للغرابـة! أنت أيضـاً من جنس النسـاء وقـد فضحت نفسك...».

قالت المرأة وعلى شفتيها الرقيقتين ابتسامة هازئة:
- «لا بدّ أنك منذ شبابك أبكيت أكثر من واحدة يا سيدي!»
فوجىء إيغوشي بتغيير المرأة المفاجىء للموضوع.
- «آه! ليس في هذا ما يضحك!
- أنت تغتاظ بلا داع. ما أغرب هذا!
- لو كنت من صنف الرجـال الذين تتكلّمـين عنهم لما وطئت قدماي منزلاً كهذا. فالرجال الذين يتردّدون إلى هنا هم عـلى ما

أعتقد عجائز مستغرقون في حسراتهم على النساء، عجائز نفدت جميع وسائلهم نهائياً!

ـ كيف لنا أن نتكهّن بذلك؟ قالت المرأة بأعصاب هادئة.

ـ في المرة السابقة لقدومي إلى هنا، طرحت عليك سؤالاً صغيراً: ما هي النزوة القصوى التي يسمح بها لعجوز في هذا المنزل؟

ـ إن الفتيات نائمات.

ـ ألا يمكن الحصول على المخدّر نفسه الذي أعطي لهن؟

ـ أعتقد أني قلت لك آنفاً لا.

ـ في هذه الحالة ما هي أسوأ فعلة يمكن لعجوز ارتكابها في هذا المنزل؟

ـ في هذا المنزل لا يحدث أيّ سوء! قالت المرأة وهي تخفض صوتها كأنها تريد إغاظة إيغوشي.

ـ «لا يحدث أيّ سوء؟» تمتم العجوز. بقيت أحداق المرأة باردة.

«إذا اتفق وشعرت برغبة في خنق الفتاة، فهذا أسهل من فتل ذراع طفل رضيع...».

سأل إيغوشي العجوز بانزعاج:

«حتى وإن حاول أحدهم خنقها ألا تفيق؟

ـ هذا ما أعتقده.

ـ هذا يجبر على الانتحار مرّتين.

ـ عندما تحسّ أنك حزين إلى درجة لا تستطيع معها أن تقتل نفسك بنفسك، لا تقدم على ذلك!

ـ وعندما نحسّ بأننا أكثر حزناً من أن ننتحر؟

ـ هذا أمر يحدث غالباً للرجال العجائز. قالت المرأة باللهجة الباردة نفسها. هل شربت الكثير من الكحول قبل مجيئك إلى هنا؟ أنت تتفوّه بأشياء غريبة!

ـ لقد شربت ما هو أسوأ من الكحول قبل المجيء إلى هنا».

لم تستطع المرأة هذه المرة أن تتحاشى إلقاء نظرة خفيّة على إيغوشي العجوز. وقالت، كما لو أن الأمر برمته لا أهميّة له:

«إنّ صغيرة هذه الليلة دافئة، وهذا ما يلزم بالضبط في ليلة باردة كهذه. تدفأ قدر ما يحلو لك!» ثم نزلت إلى الطابق الأرضي.

عندما فتح إيغوشي باب الغرفة السرّية، استقبلته رائحة أنثوية عذبة، حادّة أكثر من المعتاد. كانت الفتاة تنام مديرة رأسها إلى الجهة الأخرى، تنفّسها مسموع بشكل واضح، كانت تبدو قوية البنية، شعرها الغزير يميل إلى الاحمرار مع أنّ انعكاس الستارة القرمزية يحول دون تأكيد ذلك، بشرتها بيضاء ناصعة من الأذن اللحمية حتى العنق. إنها توحي بالدفء كما قالت المرأة، ولكن وجهها لم يكن متورّداً. عندما اندسَّ العجوز وراءها، لفظت: «آه!» دون قصد. للدفء، هي دافئة ولكن بشرتها بضّة ولزجة تقريباً، تحيط بها رطوبة ذات رائحة نفّاذة.

بقي إيغوشي جامداً لوقت طويل وعيناه مغمضتان. الفتاة أيضاً لم تتحرّك. كان جسمها في أسفل الوركين ضخماً. وقد لفّت حرارتها العجوز أكثر مما اخترقته. كان صدرها عامراً ونهداها سخيّين واطئين، وحلمتاهما صغيرتين بغرابة. لقد تكلّمت المضيفة منذ قليل عن «خنق الفتاة»، إذا كان قد تذكّر ذلك وجعله إغواءً مماثلاً يرتعد، فالذنب عائد إلى بشرة الفتاة. كيف ستصير رائحة جسدها إن هو خنقها؟ حاول إيغوشي جاهداً كي يتحرّر من أفكاره الخبيثة، أن يتخيّل منظرها القميء في وضح النهار عندما تكون واقفة أو ماشية. الأمر الذي أراحه بعض الشيء. ثم ما همّه إن كانت مشيتها قميئة؟ ما همّه إن كانت ساقاها متينتين؟ ما همّ عجوز في السابعة والستين من عمره، حين يتعلّق الأمر بفتاة لليلة واحدة، إن كانت هذه الفتاة ذكية أو بلهاء، أو كانت تربيتها جيّدة أو مهملة؟ حتى الآن هل كان الأمر شيئاً آخر إلاّ تمرير يديه على جسدها؟ فوق ذلك ألا تجهل الفتاة النائمة أن مَنْ لمسها هو مجرّد رجل عجوز؟ ستجهل ذلك دائماً. ألم تكن مجرّد دمية، أضحية مقدّمة؟ هذه هي المرة الرابعة التي يأتي فيها إيغوشي العجوز إلى هذا المنزل، ولكن في كل مرة يزداد شعوره وخصوصاً في هذه الليلة بأن اليباس بلغ كل ما يحتويه قلبه.

هل كانت فتاة هذه الليلة متآلفة مع عادات هذا المنزل؟ هل تكون قد توصّلت إلى لامبالاة شاملة تجاه العجائز الذين يرثى لحالهم؟ على أية حال، لم تستجب لملامسة إيغوشي على

الإطلاق. إن العالم الأكثر لاإنسانية يصبح إنسانياً بحكم العادة. وآلاف الرذائل تختبىء في ظلمات هذا العالم. إيغوشي وحده يختلف قليلاً عن عجائز هذا المنزل، بل يجدر القول إنه يختلف عنهم كلياً. فالعجوز كيغا الذي عرَّف إيغوشي على المنزل كان مخطئاً حين اعتقد أن إيغوشي وصل إلى الدرجة نفسها التي وصل إليها العجائز كافة، فإيغوشي لم يفقد بعد ما يجعل منه رجلاً. وبالتالي لم يكن مفترضاً أن يتمكّن من تفهّم أسى العجائز الحقيقي بشكل عميق ولا أفراحهم ولا حسراتهم ولا وحدتهم. بالنسبة له، لم يكن ضرورياً إطلاقاً أن تكون الفتاة نائمة بطريقة لا تفيق معها في أيّ حال من الأحوال.

إبّان زيارته الثانية إلى هذا المنزل مثلاً، أوشك أن ينتهك المحرّمات مع الفتاة المغوية، ووحدها دهشته من اكتشافها عذراء جعلته يتراجع. بعد ذلك عاهد نفسه أن يحترم القوانين أو بالأحرى طمأنينة «الجميلات النائمات». عاهد نفسه ألاّ ينقض سرّ العجائز. ولكن ما هي البواعث الدافعة لاستدعاء الفتيات العذارى فقط إلى هذا المنزل؟ هل لتلبية رغبة يمكن وصفها بأنها مثيرة للشفقة عند العجائز؟ لقد شعر إيغوشي بأنه يتفهّم المسألة، لكنه ارتآها تافهة في الوقت نفسه.

غير أن فتاة هذه الليلة غريبة. لم يكن العجوز يصدِّق. رفع الغطاء عن الجزء الأعلى من جسد الفتاة وألقى صدره على كتفها متأمِّلاً وجهها. كان وجهها غير متناسب كبقية جسدها، بريئاً على عكس ما كان يتوقّع، وأنفها أفطس بعض الشيء، وخدّاها

مستديرين وفسيحين، وشعرها منسدلاً فوق جبينها على شكل مثلّث، وحاجباها القصيران كثيفين وعاديين.

تمتم العجوز: «ما أظرفها!»، وأسند خدّه إلى خدّها الأسيل. أدارت الفتاة ظهرها على أثر الثقل الذي رزح فوق كتفها، فابتعد إيغوشي.

بقي العجوز فترة مغمض العينين. وهذا أيضاً لأن رائحة الفتاة حادّة ونفّاذة. يقال إن لا شيء كالروائح جدير بأن يجعلنا نتذكّر الماضي، ولكن أليست رائحة هذه الفتاة نفّاذة وقوية للغاية؟ لم تكن تذكّر إلّا برائحة الرضيع الحليبية. طبعاً الرائحتان تختلفان لكن ألا تكونان في شكل ما الرائحتين الأساسيتين للجنس البشري؟ لقد وُجد عبر الأزمنة كلّها عجائز يصنعون من الأريج الذي يفوح من الفتيات الصغيرات عقاراً للفتوّة وطول العمر. هل رائحة الفتاة تنتمي إلى هذا النوع من العطر؟ لو انتهك إيغوشي محرّمات المنزل مع هذه الفتاة لفاحت منها رائحة حمضية كريهة. أليس اعتباره لها كذلك دليلاً على أنه بات عجوزاً هرماً؟ إن الرائحة الحادة كرائحة هذه الفتاة وبالتحديد هذه الرائحة الحمضية أليست في أصل وجود الكائن الانساني؟ يبدو أن هذه الفتاة تحبل بسهولة. مهما بدا استغراقها في النوم عميقاً، فإن وظائفها الفيزيولوجية غير متوقّفة وستستيقظ في صباح الغد. لنفرض أنها حبلت، فهذا سيكون حتماً على غير معرفة منها. ماذا يحدث لو أن إيغوشي العجوز خلّف وراءه

وهو في السابعة والستين جنيناً بهذه الطريقة؟ صحيح أن ما يقود الرجل إلى «عالم الشياطين» هو جسد المرأة.

إن هذه الفتاة مجرَّدة من أية مقاومة، وذلك لصالح زبائنها المسنِّين، لصالح العجائز المساكين. إنها عارية تماماً ولن تفيق مهما يكن من أمر. وقد أحسَّ إيغوشي أنه هو أيضاً تعيس كأن ثمة ألماً في قلبه، وخطر له أن يتمتم: «للعجوز الموت، للشاب الحب، نموت مرّة واحدة، نحبّ مرّات عديدة!» دهش لقوله ذلك مع أن القول أراحه. لم يكن في طبيعته متفخّماً إلى هذا الحدّ. في الخارج كان حفيف الثلج الممزوج بالمطر وصخب البحر مختنقاً. وقد مثلت أمام عيني إيغوشي رؤيا بحر واسع وقائم تذوب فوقه رقع الثلج ما أن تتساقط. ثم ها ان طائراً كاسراً شبيهاً بنسر عملاق يحمل في منقاره شيئاً ما يقطر دماً، يحوّم فوق الأمواج ويلامسها بجناحيه. هل كان الشيء الذي يحمله طفلاً؟ إن هذا بعيد الاحتمال. على مقربة أكثر، أهي صورة الفساد الانساني؟ وهزَّ إيغوشي رأسه بخفّة وأزال الرؤيا.

«آه! كم الجوّ حارّ!». لم يكن هذا بسبب حرارة الغطاء الكهربائي وحده. كانت الفتاة قد كشفت عن صدرها العارم والصغير الحلمتين مع ذلك. كانت بشرتها البيضاء تعكس بشفافية اللون القرمزي للستارة. تأمّل العجوز صدرها الجميل وتبع بإصبعه المثلّث الذي يخطّه الشعر على الجبين. كانت الفتاة مذ استلقت على ظهرها تسحب أنفاساً طويلة هادئة. كيف

تكون أسنانها المغطّاة بشفتين صغيرتين؟ أمسك إيغوشي الشفة السفلى وثناها. كانت الشفة صغيرة ولكن ممتلئة، أما الأسنان فصغيرة ومرصوفة جيداً. عندما سحب العجوز أصابعه، لم تطبق الفتاة شفتيها تماماً وبانت أسنانها قليلاً. وقد أمسك العجوز بشحمة أذنها السمينة ومسح بها رؤوس أصابعه المطلية بأحمر الشفاه، ثم مسح ما تبقّى بالعنق الممتلىء. ارتسم على عنقها الأبيض خط أحمر ملحوظ بالكاد وخليق بأن يُعبد.

تساءل إيغوشي أتكون هذه عذراء أيضاً؟ كان قد شكّك بشأن فتاة الليلة الثانية ثم ارتعب من دناءته وندم عليها. لم يكن عنده استعداد الليلة للتأكّد. وسواء كانت عذراء أم لم تكن، فما أهمية ذلك بالنسبة له؟ وما لبث أن أدرك أن الأمر بالنسبة له على درجة من الأهمية، فخال أنه سمع صوتاً في داخله يهزأ منه. :

«أنت يا من يستهزىء بي، قل لي هل أنت الشيطان؟
- تقول عني الشيطان؟ ليس الأمر سهلاً إلى هذا الحد! لماذا لا أكون بكل بساطة طريقة مفخّمة تمثّل لك مشاعرك وتمنياتك التي سيبدّدها الموت؟
- بالتأكيد لا، أنا أحاول فقط أن أتصوّر الأشياء واضعاً نفسي مكان العجائز الأتعس مني.
- تبّاً لك! ماذا تقول أيها الفاسد؟ من يلقي ميوله على الآخرين يستحق فعلاً صفة الفاسد!
- أفاسد تقول؟ حسناً موافق! إذا كانت الفتاة العذراء طاهرة

فلِمَ لا تبقى كذلك إذاً حين لا تعود عذراء؟ إنني لم أجىء إلى هذا المنزل لأجل العذارى!

ـ ذلك أنك ما زلت تجهل ما هي رغبات عجوز خرف فعلاً. لا تطأ أرض هذا المنزل ثانية! لو فرضنا المستحيل ـ الأمر بعيد الاحتمال قطعاً أؤكّد لك ـ وفتحت الفتاة عينيها، ألا تظنّ أن العجوز سيشعر بالذلّ؟

هذه هي الأفكار التي راودت ذهن إيغوشي العجوز بشكل حوار مع نفسه. الأسباب لا تعود بطبيعة الحال إلى أن الفتيات النائمات هنَّ عذارى دائماً. وإنه لأمر محيِّر أن يأتي إلى هذا المنزل للمرة الرابعة ولا يجد إلاَّ العذارى! أهذا ما يصبو إليه العجائز فعلاً ويرغبون فيه؟

من ناحية ثانية، خطرت له فكرة «ماذا لو فتحت عينيها؟» وفتنته بشكل فظيع. أية ضربة، أية قوة يلزم استخدامها لتفتح الفتاة عينيها ولو بطريقة غير إرادية؟ لو قطعت ذراعها مثلاً أو غرز سكين في بطنها، هل يبقى وارداً أن تنام طويلاً؟

«لقد أصبحت شريراً جيِّداً!»، تمتم إيغوشي في نفسه.

إن عجز المسنِّين الذين يتردَّدون إلى هذا المنزل ينتظره بعد سنوات قليلة. وانبجست في داخله أفكار تخريبية: «أهدمْ هذا المنزل، أهدمْ حياتك!». هل السبب في هذه الأفكار راجع إلى الإلفة التي شعر بها تجاه الفتاة النائمة هذه الليلة؟ إنها فتاة لا تحمل جمالاً كلاسيكياً ومع ذلك فهي جميلة وتبرز صدراً عارماً.

أم أن السبب هو الظاهرة العكسية لروح الندامة؟ هناك أيضاً جانب من الندامة في حياة تحوَّلت إلى ميول ضعيفة. لعلّه لا يملك شجاعة ابنته الصغرى التي شاهدت وإيّاه «الكاميلية المنزوعة البتلات» في تسوباكي ـ ديرا. وأغلق إيغوشي عينيه.

فوق الشجيرات المشذّبة على طول الحجارة المسطّحة في ممرّ الحديقة، كانت فراشتان تمرحان، تارة تغيبان وتمسحان الشجيرات تارة أخرى بأجنحتهما مستغرقتين بمتعة في هذه اللعبة. عندما ارتفعتا قليلاً فوق الشجيرات وتلاطم طيرانهما الخفيف، برزت ثالثة من بين الأوراق ثم رابعة. فكَّر أنهما زوجا فراش ولكن ما لبثت أن انضمّت فراشة خامسة إلى اللعبة. هل ستتخاصم فيما بينها؟ غير أن فراشات أخرى ارتفعت من الشجيرات بأعداد متزايدة وصارت الحديقة كلها بعد قليل فرقة فراشات بيضاء راقصة. لم ترتفع أية فراشة أكثر من مستوى صديقاتها. عندئذ ارتعشت أفنان شجرة قيقب بفروعها الممتدّة والمتدلّية تحت تأثير ريح خفيفة؛ أفنان رشيقة تحمل أوراقاً عريضة مرتعشة في الريح. كانت جماعة الفراشات تتزايد دون توقّف مشكّلة حقلاً من الأزهار البيضاء. إذا أخذ بالاعتبار وجود شجرة القيقب، أتكون لهذه الرؤيا علاقة بمنزل «الجميلات النائمات»؟ كانت أوراق القيقب في الرؤيا تميل إلى الاصفرار أو الاحمرار مما يشكّل تناقضاً مع بياض الفراشات. ولكن قياقب هذا المنزل عارية كلها؛ بالطبع لا تزال هناك بعض الأوراق المتقلّصة على الأغصان يغطيها الثلج شبه الذائب.

كان إيغوشي قد نسي تماماً برودة هذا الثلج الذائب المتساقط في الخارج. في هذه الحالة، تعود رؤيا فرقة الفراشات الراقصة على الأرجح للفتاة التي تكشف عن صدرها الأبيض العارم. هل في هذه الفتاة شيء ما يطرد الميول الشرّيرة للعجوز؟ فتح إيغوشي عينيه. تأمّل حلمتيها الصغيرتين الزهريتين فوق صدرها العارم. بدت له هاتان الحلمتان رمزاً للطيبة. وأسند خدّه إلى صدرها. فشعر بالحرارة تخترق أجفانه. ورغب في أن يترك على الفتاة أثراً منه. ستتألّم دون شك في الصباح لو أنه انتهك قوانين هذا المنزل. وكان ان خلف إيغوشي على صدر الفتاة بضع حلقات بلون الدم، وأحسّ بالانتشاء.

«بدأ الجو يبرد!» وتدثّر بالغطاء، ثم ابتلع عن قصد قرصيّ المنوّم المهيّأين كالعادة قرب سريره. «ما أثقلها! كم هي سمينة في الأسفل!» قال إيغوشي وهو يمسكها من نصف جسمها ليرجعها إلى وضعها المفضّل.

في صباح اليوم التالي، نبّهت المضيفة إيغوشي العجوز مرتين من نومه. في المرة الأولى قرعت على الباب الفاصل بين الغرفتين.

- «يا سيدي، إنها الساعة التاسعة!

- أجل، لقد أفقت! إني أنهض! هل الجوّ بارد في الغرفة المجاورة؟

- بل هو دافىء. لقد أشعلت جهاز التدفئة منذ وقت طويل.

- والثلج؟

ـ توقّف عن التساقط ولكن الجوّ ما زال غائماً.
ـ آه! حسناً.
ـ لقد حضّرت إفطارك منذ قليل.

ـ ياه!» أجاب العجوز مراوغاً وأغمض عينيه من النعاس ملتصقاً ببشرة الفتاة الفائقة الجمال وتمتم: «ها إن شيطاناً من الجحيم يناديني!»

حين عادت المرأة للمرة الثانية، عشر دقائق بالكاد كانت قد مرّت.

«سيدي! قالت وهي تقرع الباب بشدّة أكثر. هل عدت للنوم؟» كانت لهجتها تعبر عن انزعاجها.

«ليس هذا الباب مقفلاً بالمفتاح!» قال إيغوشي. دخلت المرأة. فنهض العجوز ببلادة. أعانته المرأة على تغيير ملابسه لأنه كان مذهولاً تماماً، حتى أنها ألبسته جواربه. وبدت له حركاتها بغيضة. عندما رجعا إلى الغرفة المجاورة، حضّرت له الشاي بلباقتها المعهودة. ولكنها حملقت ببرود في إيغوشي العجوز فيما هو يرتشف الشاي بتلذّذ، وكأنّ شكّاً قد اعتراها:

«هل أعجبتك فتاة هذه الليلة؟
ـ آه! بالتأكيد!
ـ عظيم إذاً! هل رأيت أحلاماً سعيدة؟
ـ أحلام؟ آه! لا ولا حلم. غرقت في نوم جدّ ثقيل. منذ

زمن بعيد، لم أنم جيداً هكذا! قال إيغوشي وهو يكتم تثاؤباً. لم أفق جيداً بعد.

ـ لا بدّ وأنّك أتعبت نفسك البارحة.

ـ هذا ربّما بسبب الفتاة. هل تلقى هذه الصغيرة إقبالاً كبيراً؟

خفضت المرأة رأسها وقتم وجهها.

أودّ أن أطلب منك أمراً، قال إيغوشي بلهجة واثقة. هل تتكرّمين بإعطائي من هذا المنوّم الآن بعد الإفطار؟ أرجوك! سأعترف لك بهذا الجميل! لا أعرف متى تستيقظ الفتاة ولكن...

ـ هل تمزح! صار وجه المرأة القاتم شاحباً ثم قالت وهي متشنّجة: «ويحك ماذا تقول؟ هناك حدود لكل شيء!»

ـ حدود؟ أراد العجوز أن يضحك ولكن الضحكة احتبست.

هل شكّت المرأة أن يكون إيغوشي قد فعل شيئاً للفتاة؟ ما كان منها إلاّ أن نهضت بسرعة ودخلت إلى الغرفة المجاورة.

V

مضى رأس السنة والبحر الهائج يرسل فورة صخبه الشتائي. وعلى الأرض، كانت الريح ضعيفة نسبياً.

«حسناً، ما كان عليك أن تكلّف نفسك عناء المجيء في ليلة باردة كهذه». قالت له مضيفة الجميلات النائمات جاعلة عبارتها بمثابة استقبال، أثناء إقفال البوابة بالمزلاج.

ـ ألا تعتقدين أني أتيت لهذا السبب بالذات؟ قال إيغوشي العجوز. في ليلة باردة كهذه، أليس الموت المفاجىء في حرارة جسد شابّ هو النعيم المنشود لرجل عجوز؟

ـ تتفوّه بأشياء كريهة!

ـ ياه! إن العجوز جار الموت!

كان الصالون المعتاد في الطابق الأرضي معدّاً بجهاز التدفئة. وقد أحضرت المرأة كما في المرّات السابقة شاياً لذيذاً.

«ما هذا الذي أسمعه، كأنّه مجرى هواء؟ سأل إيغوشي.

ـ صحيح؟ قالت المرأة وهي تنظر من حولها. ليس هناك مجرى هواء!

ـ أوَ تخيّم أشباح في هذه الغرفة؟

رفعت المرأة كتفيها ونظرت إلى العجوز. بهت وجهها كلياً.

«أتسمحين لي بفنجان آخر من الشاي؟ لا تتعبي نفسك بتبريد المياه! اسكبيها لي غالية!»، قال العجوز.

فعلت المرأة ما أراده وقالت له بلهجة باردة:
- «هل وصلت إليك أخبار؟
- بالتأكيد!

- آه! حسناً. ومع ذلك أتيت إلى هنا؟» هل أحسَّت أن إيغوشي كان على علم بما يجري، على أية حال لم تقم بأي جهد للإخفاء وإن بدت مغتاظة فعلاً.

«لقد كلَّفت نفسك عناء المجيء، ولكن هل لي أن أطلب منك الرحيل من جديد؟
- لقد أتيت مع أني علمت بما حدث، ما همّك في الأمر؟
- هي، هي، هي...» لو كانت الشياطين تضحك لرنَّ ضحكها على هذا النحو.

«في جميع الأحوال، إن حادثاً من هذا النوع يحصل دائماً! فالشتاء خطير على الشيوخ... لو أنك تقفلين المنزل في الأشهر القارسة على الأقل؟

- ...
- أجهل أي صنف من العجائز يأتي إلى هنا، ولكن لو أن حادثة ثانية أو ثالثة وقعت فإنَّك لن تتخلَّص من هذه الورطة بسهولة!

- في وسعك أن تقول هذه الأشياء للمدير! ما ذنبي أنا؟ قالت المرأة وقد ازداد وجهها شحوباً.

- أنت أيضاً مذنبة! ألم تنقلي جثة العجوز إلى نزل في مركز المياه الحارّة المجاور؟ خفية تحت جنح الليل... «لا بدّ وأنك أنت أيضاً مشاركة في الجريمة!»

تشنّجت المرأة وتصلّبت يداها على ركبتيها:

«فعلنا ذلك من أجل سمعة الرجل العجوز!»

- سمعته؟ وهل للأموات سمعة؟ حسناً، فلنفترض أنكم فعلتم هذا من أجل إنقاذ المظاهر، لمصلحة العائلة أكثر ممّا لمصلحة العجوز. مع أن هذا غير مجدٍ... هل لذلك المنزل ولهذا المنزل مالك واحد؟

لم تجب المرأة.

«لا أعتقد أن الجرائد كانت لتخبر أن العجوز مات هنا إلى جانب فتاة عارية، أليس كذلك؟ لو كنت مكان ذلك الرجل لصرت أسعد انسان شرط أن تتركوني هنا بدل نقلي إلى مكان آخر.

- سيجري تشريح للجثة وتفتيش إضافة إلى جميع أنواع الإزعاجات، وبما أن الغرفة غريبة بعض الشيء، يمكن أن ينتج عن ذلك بعض المشاكل للرجال الآخرين الذين يشرّفنا كونهم زبائننا. وأيضاً للصغيرات...

- ربّما تخبّط العجوز بعض الشيء أثناء احتضاره. ومع ذلك

فالفتاة لم تستيقظ بل نامت جاهلة دون شكّ أن العجوز ميّت.

ـ لا، لهذا الأمر. . . ومع ذلك لـو فرضنـا أن العجوز مـات هنا، فمن كان جديراً بأن ينقل ويخبأ في مكان ما إنما هي الفتاة. لكن حتى والحـالة هـذه، أظنّ أنهم سيكتشفون آثـاراً تظهـر أن امرأة كانت إلى جانبه.

ـ ماذا، هل تركتم الفتاة؟

ـ لكن ألا يثبت هذا الجريمة فعلياً؟

ـ أن يكـون العجوز الميّت متجمّـداً إلى جانب الفتـاة أمر لا يكفي لإيقاظها بالطبع.

ـ لا!

ـ إذاً هي لم تنتبه إطلاقـاً إلى أن العجوز مـات قربهـا». أصرّ إيغوشي. كم من الوقت مضى على الفتاة المستغرقة في نـوم عميق وهي تلتصق بجثة باردة؟ على كلّ حـال، لم تنتبه أيضـاً إلى أنّهم نقلوا الجثّة.

«فيما يخصّني، ضغطي جيّـد وقلبي صلب، لا تقلقي بشأني؛ ولكن لو حدث لي شيء مماثل، ألا يمكنكم أن تتركوني إلى جانب الفتاة بدل نقلي إلى مركز ما للمياه الحارّة؟

ـ «كنت أمزح!» قال العجوز وهو يضحك. ليس لديـه سبب كما قال للمرأة ليفكّر أن موتاً مفاجئاً يهدّده.

ـ كنت أمزح!» قال العجوز وهو يضحـك. ليس لديـه سبب كما قال للمرأة ليفكّر أن موتاً مفاجئاً يهدّده.

مهما يكن، فإن الإعلان في الجرائد عن مأتم العجوز كان ينصّ ببساطة: «على إثر وفاة مفاجئة». التقى إيغوشي بالعجوز كيغا في المأتم وهناك همس له بالتفاصيل. توفي على إثر نوبة قلبية ولكن:

«ليس مركز المياه الحارّة مكاناً من النوع الذي يتردَّد إليه هذا الرجل. كانت له عاداته في مكان آخر. أخبره كيغا العجوز. هناك أناس لَمحوا بلباقة إلى أن المدير السيد فوكورا كان محظوظاً في وفاته. بطبيعة الحال، هؤلاء الناس يجهلون كل شيء عمّا حدث فعلاً.

- إحم!
- ربّما يجدر القول إنه توفي شبه محظوظ، لأن الحقيقة لم تكن كما قالوا. لا بل تألَّم زيادة. أمّا أنا الذي كنت على صلة جيِّدة بالمدير فوكورا، فقد بدأت تشغلني فكرة انصرفت للتثبّت منها في الحال. لكنه لم يقل شيئاً لأحد ولا تعرف عائلته أي شيء. إن الدعوات في الجرائد تثير الفضول أليس كذلك؟»

كانت هناك دعوتان في الجريدة، الواحدة قرب الأخرى، الأولى من جانب ابنه وزوجته، والثانية باسم زملائه في الشركة.

«ذلك أن فوكورا كان هكذا! قال كيغا، وأشار بالحركات إلى عنق سمين وصدر عريض وبطن منتفخ. أنت عليك أيضاً أن تنتبه لنفسك!

- بالنسبة لي، لا تخشى عليّ من هذه الناحية!

ـ مهما يكن، ألم ينقلوا الجثّة الهائلة لفوكورا في عزّ الليل حتى نزل المياه الحارّة!»

كيف تم نقله؟ لا بدّ وأنهم استعملوا بطبيعة الحال سيّارة. أحسَّ إيغوشي العجوز بالانزعاج عند تصوّره ذلك.

ـ «هذه المرّة، لا يبدو أن الخبر تسرّب، ولكني لا أستطيع الامتناع عن التفكير بأنه في حال حدثت أشياء كهذه فستكون نهاية ذلك المنزل قريبة. تمتم العجوز كيغا أثناء المأتم.

ـ «ممكن جداً!» أجاب إيغوشي العجوز.

هذه الليلة، لم تحاول المرأة إخفاء أي شيء عندما فكّرت بأنه على علم بما حدث، بل أخذت حذرها بلباقة.

«ألم تعلم الفتاة فعلاً بما حدث؟» سأل إيغوشي العجوز بمراوغة.

ـ ليس هناك من داع لأن تعلم، ولكن السيد العجوز فيما يبدو قد تألّم قليلاً لأن هناك آثار خمشات على عنق الفتاة. لم تنتبه لشيء حتى الصباح عندما فتحت عينيها فقالت: «آه! يا للرجل اللعين!»

ـ الرجل اللعين؟ والأمر يتعلّق بآلام الاحتضار؟

ـ لا يمكننا حقّاً القول إنها جراح. بضعة آثار هنا وهناك بلون الدم حمراء ومتورّمة».

بدت المرأة الآن مستعدّة لإخبار إيغوشي بكل شيء، ولكن إيغوشي فقد أية رغبة، عند وصولها إلى هذه النقطة، في أن

يعرف أكثر عن الموضوع. ليس في الأمر إلاّ رجل عجوز توفي بغتة وربّما حاز موتاً سعيداً. الشيء الوحيد الذي أساء إلى خيال إيغوشي هو نقل الجثة الهائلة التي حدّثه عنها كيغا إلى مركز المياه الحارّة، ثم:

«ليس منظر موت عجوز خرف جميلاً، أليس كذلك؟ ياه! نهاية سعيدة ما كان أقربها... ولكن لا، هذا العجوز ذهب بالتأكيد إلى الجحيم...

- ...

- هل كانت شريكته فتاة أعرفها؟

- هذا ما لا أستطيع أن أقوله لك.

- لنقلع إذاً!

- بما أنها احتفظت بآثار حمراء من العنق حتى الصدر، فقد وضعناها لترتاح حتى تختفي هذه الآثار كليّاً.

- أودّ فنجاناً آخر من الشاي. كم أنا عطشان!

- أجل! سأحضر شاياً جديداً.

- بعد حادثة من هذا النوع، وإن توصّلتم إلى إخفاء آثار القضية من الأول حتى الآخر، فإن هذا المنزل لن يدوم طويلاً، ألا تعتقدين؟

- وهل هذا ممكن؟ قالت المرأة بهدوء دون أن ترفع رأسها وهي تسكب الشاي. إن الأشباح تتجوّل في ليلة كهذه يا سيدي.

- حسناً، أنا أرغب جدياً في التحدّث إلى شبح ما.

ـ عن ماذا، أرجوك؟
ـ عن شيخوخة الانسان المحزنة مثلاً!
ـ هذه المرّة، أنت تمزح!
رشف العجوز الشاي المعطّر.
«إنها مزحة، فهمتها جيداً. ولكن هناك أشباح تسكن فيَّ وأنت أيضاً لديك منها في داخلك»، قال إيغوشي العجوز ويده اليمنى ممدودة باتجاه المرأة.
ثم سألها: «ولكن أنت كيف علمت في الحقيقة أن الرجل قد مات؟».
ـ بدا لي أني سمعت دمدمة غريبة فصعدت إلى الطابق الأول لأرى. كان نبضه وتنفّسه متوقّفين.
ـ والفتاة لم تنتبه لشيء؟ ردّد العجوز.
ـ ذلك أننا دبّرنا الأمر حتى لا يتسنّى لها أن تستيقظ ولو برهة!
ـ ولو برهة؟... ليس هناك ما يدعو لأن تلاحظ أنهم يحملون جثّة العجوز.
ـ لا!
ـ والحالة هذه، الفتاة هي الأكثر شؤماً في هذه الحادثة.
ـ لا شؤم في ذلك! بدل أن تتلفّظ بحماقات، عجّل في الإيواء إلى الغرفة المجاورة، أرجوك! هل حدث لك قبل الآن أن رأيت في فتاة صغيرة شيئاً ما مشؤوماً؟
ـ أن تكون الفتاة شابّة، ربّما هذا هو الشؤم بالنسبة لعجوز!

ـ «ماذا دهاك» . . . قالت المرأة بابتسامة صغيرة ثم نهضت وفتحت الباب الفاصل. في انتظارك، ساعة تشاء. . . آه، أجل المفتاح! انتزعته من حزامها وناولته إيَّاه. ياه! في الحقيقة نسيت أن أقول لك إنهما فتاتان هذه الليلة.

ـ اثنتان؟»

انتفض إيغوشي العجوز متسائلاً هل هذا بسبب انتشار خبر موت العجوز المفاجىء بين الفتيات؟

«ساعة تشاء!» ردَّدت المرأة وغادرت.

فتح إيغوشِي الباب، لكن فضول المرّة الأولى والخجل كانا قد ذهبا الآن. ورغم ذلك انتفض مندهشاً.

«هل هذه أيضاً فتاة مبتدئة؟»

كانت هذه الفتاة، خلافاً للمبتدئة «الصغيرة» في المرّة السابقة، متوحّشة تماماً. وهذه الهيئة المتوحّشة أنست العجوز موت فوكورا. كانت ممدَّدة على أحد الفراشين الموضوعين جنباً إلى جنب والأقرب إلى المدخل. ربّما لم تكن الفتاة معتادة على ملحقات خاصة بالناس العجائز كالغطاء الكهربائي، فربّما كان في جسدها ما يكفي من الحرارة ليهزأ بليالي الشتاء، حسرت الغطاء حتى منتصف صدرها. كانت تستلقي على ظهرها، ذراعاها مسبلتان ومنبسطتان قدر ما تستطيع. كانت حلمتاها واسعتين وبنفسجيّتين داكنتين. لم يكن لونها جميلاً في الضوء

المتساقط الذي يعكسه المخمل القرمزي ولا لون بشرتها من العنق حتى الصدر. كان جسدها المتعرّق يشعّ ببريق أسود.

«إنها الحياة عينها!» تمتم إيغوشي. فتاة مماثلة تعدّ ناضجة بالحياة بالنسبة لعجوز في السابعة والستين. شكّك إيغوشي في أن تكون يابانية. وما يدلّ على أنها لم تبلغ العشرين بعد هو أن حلمتيها لم تكونا بارزتين مع أن نهديها كبيران. لم تكن سمينة بل رشيقة وصلبة.

«إحم!» قال العجوز وأمسك يدها. كانت أصابعها طويلة وأظافرها أيضاً. لا بدّ أن جسدها طويل وفقاً للعادة الجارية. كيف يمكن أن يكون صوتها؟ كيف هي نبراتها؟ كان يحبّ سماع أصوات بعض النساء في الراديو أو في التلفزيون، وعند ظهور هؤلاء الممثّلات، كان يحدث له أن يغمض عينيه فقط لسماعهن. وأحسّ العجوز برغبة جامحة في سماع صوت الفتاة النائمة التي لن تفيق ولن تتكلّم بأية طريقة. ما الذي يجب فعله إذاً كي تتكلّم وهي نائمة؟ صحيح أن الصوت مختلف تماماً في النوم. إن النساء في أكثريتهن يلجأن في الحقيقة إلى أنماط عدّة من الأصوات، ولكن أغلب الظنّ أن هذه الفتاة لا تستخدم إلّا نمطاً واحداً. إذا حكمنا على طريقة نومها، فنستنتج أنها غير مؤدّبة وغير متكلّفة.

جلس إيغوشي العجوز وأخذ يلهو بأظافر الفتاة الطويلة. هل يمكن لأظافر أن تكون قاسية إلى هذا الحدّ؟ هل هي أظافر صبية

وسليمة؟ كان لون الدم تحت الأظافر غامقاً. لم يلاحظ حتى الآن أنها ترتدي عقداً ذهبياً رفيعاً كخيط. رغب العجوز في الابتسام. كانت في هذه الليلة الجليدية تكشف حتى أسفل صدرها وفوق ذلك بدا عرق خفيف متلألىء على جبهتها عند أطراف شعرها. انتزع منديله من جيبه ومسح جبينها. نفذت رائحة ثقيلة من المنديل. مسح أيضاً إبطيها. ولما كان لا يستطيع أن يحمل من جديد منديلاً إلى بيته في هذه الحالة، فقد لفّه ورماه في زاوية من الغرفة.

«أنظر، إنها تضع أحمر شفاه!» تمتم العجوز، الأمر طبيعي دون شكّ ولكنه مضحك عند هذه الفتاة بالذات. تأمّلها عن كثب:

«هل أجرت عملية الشفة العليا المشقوقة؟»

ذهب العجوز لالتقاط المنديل الذي رماه ومسح شفتي الفتاة. لا أثر لعملية. غاية ما في الأمر أن وسط شفتها العليا مرتفع على شكل خطٍّ مثلّث مرسوم بوضوح. كان هذا غير متوقّع وساحراً!

خطرت على باله ذكرى قبلة ترقى إلى أكثر من أربعين عاماً. كان إيغوشي واقفاً أمام الفتاة يمسكها برفق من كتفيها ثم بغتة قرَّب شفتيه منها. نفرت من شفتيه مديرة رأسها تارة إلى اليمين وأخرى إلى الشمال.

«لا، لا! لن أفعل ذلك!»، قالت.

– آه! لا عليك، انتهى الأمر!

ـ «أنا لم أفعلها!».

ما كان من إيغوشي إلاّ أن مسح شفتيه وأظهر لها منديله الذي يحمل آثاراً حمراء.

«أنت لم تفعليها؟ خذي! . . .»

أمسكت الفتاة المنديل، نظرت إليه ثم وضعته في حقيبة يدها دون أن تنبس بكلمة.

ردَّدت: «أنا لم أفعلها» وصمتت. خفضت رأسها واغرورقت عيناها بالدموع. لم يرها بعد ذلك قط. ماذا فعلت بالمنديل؟ أو ماذا يهم المنديل؟ هل لا تزال الآن بعد أربعين عاماً ونيِّف على قيد الحياة؟

كم من السنوات مرَّت نسي خلالها تلك الفتاة كلياً؟ تساءل عن ذلك في اللحظة التي انتبه فيها إلى المثلَّث الرائع المرتسم فوق الشفة العليا للفتاة النائمة. لو ترك منديله قرب سرير هذه الفتاة لوجدته أحمر، وبما أن أحمر شفاهها قد انتزع فستفكّر عندما تفيق أن أحدهم اختلس قبلة منها. بديهي أن القبلة في هذا المنزل، من الأشياء المسموح بها. ليس من داعٍ لمنعها. حتى بالنسبة لأكثر العجائز خرفاً تبقى القبلة من ضمن الأشياء الممكنة. المشكلة الوحيدة هي أن الفتاة لا تستطيع تحاشيها أو إدراك حدوثها. ربّما هاتان الشفتان النائمتان باردتان وغثّتان. شفتا حبيبة ميّتة قد تثيران ارتعاشة العاطفة بقوة أكثر منها.

عندما تذكّر إيغوشي الشيخوخة التاعسة لزبائن هذا المنـزل، فقد كل رغبة في تقليدهم بهذه النقطة.

ولكن الشكل الغريب لشفتي فتاة هذه الليلة أثار إيغوشي. فتساءل: هل من المعقول وجود شفاه مماثلة؟ ولامس بطرف إصبعه منتصف شفتها العليا. كانت جافّة وسميكة. بدأت الفتاة تلحس شفتيها ولم تتوقّف عن ذلك حتى صارتا نديّتين. سحب إيغوشي إصبعه.

«هل هذه الصغيرة تحسن التقبيل حتى وهي نائمة؟»

اكتفى بمداعبة شعرها حول أذنها. شعرها سميك وقاسٍ. نهض إيغوشي ليبدّل ملابسه.

«مهما كنتِ قوية البنية فستصابين بالزكام إن بقيت كذلك»، قال. وأدخل ذراعي الفتاة تحت الغطاء ثم التصق بها. التفتت نحوه متذمّرة ومدّت ذراعيها الاثنتين. أبعدت العجوز بصراحة. كان الأمر بمنزلة من الغرابة بعثت به على عدم التوقّف عن الضحك.

«على الأقل تعرف هذه المبتدئة كيف تدافع عن نفسها!»

كانت مستغرقة في نوم لن تستطيع الإفاقة منه بأيّ حال، وجسدها متخدّر بحيث أن كل شيء يغدو ممكناً معها، لكن الطاقة الضرورية لاستعمال العنف مع فتاة في مثل هذه الحالة باتت معدومة الآن عند إيغوشي العجوز. ربّما أفقده إيّاها منذ

فترة سحرها الهادىء ورضاها الوديع وأيضاً تخلّيها الأليف. كان قد فقد القدرة على الانقضاض طويلاً في المغامرة والصراع. الآن وبعد أن أبعدته الفتاة النائمة بغتة، فهم العجوز ذلك وهو يضحك:

«حاصل الكلام، إنه العمر!»، تمتم إيغوشي. لم يكن في الحقيقة مؤهّلاً بعد للمجيء إلى هذا المنزل كالعجائز الذين يتردّدون إلى هنا، ومع ذلك ما تبقّى له من ذكورته، هل هو ضئيل إلى الحدّ الذي تصوّره؟ إن ما دفعه إلى هذا التساؤل بحدّة غير مألوفة، عائد دون شكّ إلى حضور هذه الفتاة بجلدها الأسود اللمّاع.

تعنّيف فتاة مماثلة، من شأنه أن يوقظ شبابه. كان إيغوشي قد بدأ ينفر من منزل «الجميلات النائمات»، ولكن كلّما كان نفوره يزداد، كلّما زادت رغبته في المجيء، ورغبة في إيقاظ هذه الفتاة، في تحطيم محظورات هذا المنزل، في تبديد الملذّات البغيضة السرية للعجائز وفي القطع هكذا مع المكان، تحرّكت في دمه وأهاجته. ولكن العنف والإرغام غير مجديين، وهو لن يلقى أية مقاومة من جسد الفتاة النائمة. قد يكون خنقها أمراً في غاية السهولة. ولكن كل طاقة فارقته وغشيه شعور بالعدم الغامض. كان صخب الأمواج العالية القريبة يبدو له بعيداً، وهذا أيضاً بسبب توقّف الريح على الأرض. فكّر العجوز بالهُوى القاتمة التي يحدثها الليل فوق البحر المعتم. استند إلى مرفقه وقرّب

وجهه من وجه الفتاة. كان تنفّسها قوياً. تراجع عن تقبيل فمها وأرجع مرفقه.

بقي إيغوشي العجوز في الوضع الذي تركته فيه الفتاة ذات البشرة السوداء عندما دفعته بذراعيها. واندسّ إلى جانب الفتاة الأخرى التي كانت تدير له ظهرها. استدارت نحوه بضربة على كليته. عذبة مرحبّة حتى في نومها وساحرة رقيقة. ارتاحت إحدى يديها فوق خاصرة العجوز.

قال: «هذا ما هو ممتاز!» أخذ يداعب أصابع الفتاة مغمضاً عينيه. كانت سلامياتها النحيلة ليّنة، ليّنة إلى حدّ أننا نستطيع ثنيها قدر ما نريد دون أن تنكسر، إلى حدّ أنه رغب أن يضعها في فمه. نهداها كانا صغيرين؛ مستديرين وصلبين، لكن يتسعان ليدي إيغوشي. كان لاستدارة الورك شكل مماثل. المرأة لامتناهية، فكّر العجوز ثم فتح عينيه وقد اعتراه نوع من الحزن. كان عنق الفتاة طويلاً، رشيقاً هو أيضاً وجميلاً، ولكن ليس كما يريده الذوق الياباني القديم. ثمة ثنية خفيفة على جفنها المطبق، هل تختفي عندما تفتح عينها؟ أم تختفي وتظهر من وقت إلى آخر؟ وهل هذه الثنية هي في عين دون الأخرى؟ لم يستطع أن يميِّز اللون الصحيح لبشرتها في انعكاس المخمل الذي يلفّ الغرفة. كان لون وجهها قمحياً، عنقها أبيض ومفصل العنق يميل من جديد إلى لون القمح. أمّا صدرها فكان ذا بياض ناصع.

كان قد لاحظ أن الفتاة السوداء طويلة القامة وهذه الفتاة أيضاً. وقد تحسَّس العجوز برؤوس أصابع قدمه، فصادف أولاً باطن قدم الفتاة السوداء القاسي والسميك. إن قدمها رطبة فضلاً عن ذلك. وانتزع العجوز قدمه بسرعة ولكنه أحسَّ بالإغواء. أتكون هذه الفتاة السوداء شريكة العجوز فوكورا الذي توفي على إثر نوبة قلبيّة، فجعلوها تنام مع فتاة ثانية في الغرفة؟ عبرت هذه الفكرة ذهن إيغوشي العجوز بسرعة.

هذا أمر بعيد الاحتمال. ثم ألم تقل له المضيفة قبل قليل إن العجوز فوكورا غطّى شريكته وهو يتخبّط في نزاعه الأخير بكدمات من العنق حتى الصدر، وإنها أخلدت للراحة ريثما تختفي الكدمات؟ لامس إيغوشي بقدمه مرّة أخرى باطن القدم السميك ثم نقلها صعوداً متحسّساً الجلد الأسود.

شعر بارتعاشة كأنّها تقول: «آه! امنحيني الفضيلة السحرية للحياة!». أبعدت الغطاء الكهربائي أو أنه بالأحرى كان في الأسفل. وأخرجت ساقها ومدّتها. تأمّل العجوز جسدها من الصدر حتى البطن فرغب في دفعها على الحصائر المتجلّدة. وضع أذنه على قلب الفتاة وأصغى إلى خفقاته. خال أنه سيجدها سريعة وقوية ولكن لفرط دهشته وجدها ضعيفة وحزينة، وفوق ذلك، أليست غير منتظمة قليلاً؟ ربّما هذا انطباع عائد إلى أذن العجوز غير الدقيقة.

«ستصابين بالزكام!»

غطّى إيغوشي جسد الفتاة من جديد، ثم قطع تيّار الغطاء الكهربائي لجهتها. راوده شعور بأن الفضيلة السحرّية لحياة امرأة شيء سخيف. ماذا يحدث لو أنه شدّ على عنقها؟ إن عنقها شيء هش، وخنقها سهل حتى بالنسبة لعجوز. مسح خدّه الذي أسنده إلى صدرها بمنديله. كأن رطوبة جلد الفتاة التصقت بجلده، وصوت قلبها بقي يدقّ في أعماق أذنه. وضع العجوز يده على قلبه. بدا له أنه يخفق بنشاط أكثر وربما كان السبب أنه يجسّه بيده.

أدار إيغوشي العجوز ظهره للفتاة السوداء واستدار ناحية الفتاة الناعمة. بدا أنفها الجميل المتناسق لعينيه المديدتين أكثر أناقة. أحاط العنق المنحني، الرشيق، الجميل، الأهيف بيده وجذبه نحوه بسهولة. وفيما العنق يتحرّك بليونة، تصاعدت منه رائحة عذبة تابعت حركاته وامتزجت بالرائحة الفجّة والقوية للفتاة السوداء وراءه. التصق العجوز بالفتاة البيضاء. كان تنفّسها سريعاً وقصيراً. بقي فترة هكذا غير خاشٍ أن تفيق.

«هل تسامحينني، من فضلك؟ أنت آخر امرأة في حياتي. . .»

أحسّ أن الفتاة السوداء وراءه تلهث. ومدَّ يده لتحسّسها فوجد شيئاً رطباً كالنهدين.

«اهدئي! أصغي إلى أمواج الشتاء وهدّئي من روعك!» قال وهو يحاول جاهداً تهدئة خفقان قلبه.

«كأن هذه الفتاة مخدّرة. ربّما جرعت مادّة سامّة أو مخدّراً

قوياً. ولماذا تفعل ذلك؟ أليس من أجل المال؟»، حاول العجوز أن يقنع نفسه ولكن شيئاً ما جعله يتردّد. كان يعرف جيّداً أنه لا توجد امرأتان متشابهتان، لكن هل تكون هذه الفتاة من الجنون بحيث تجرؤ على مواجهة ما سيجعل بقية أيّامها تعاسة محرقة وجرحاً لا يندمل؟ كان يحق لرجل في السابعة والستين مثل إيغوشي أن يعتبر جميع أجساد النساء متشابهة؟ بالإضافة إلى ذلك، لم تبد هذه الفتاة أية موافقة أو رفض أو ردّة فعل من أي نوع. الفرق الوحيد بينها وبين الجثة هو أن دماً حارّاً ونَفَس حياة يسريان فيها. لا بل هناك فرق أساسي بينها وبين الجثة، وهو أنها ستفيق حيّة في الغد. قبل أن تستيقظ لن تبدي أيّ حبّ أو بغض أو خوف ولكن بعد أن تستيقظ لن يتبقّى فيها إلّا الحقد والندم. لن تعرف حتى من هو الرجل الذي فضّ بكارتها بل جلّ ما تملك أن تفترضه هو أنه أحد العجائز. والأرجح أنها لن تقول للمضيفة إنه انتهك محظورات هذا المنزل المختص بالعجائز. ستحتفظ بالسرّ دون شك ولن يعرف أحد عداها شيئاً، والتصقت الفتاة النائمة به التصاقاً شديداً. أمّا الفتاة السوداء فجاءت تلصق جسدها العاري بظهر العجوز، بعد أن شعرت بالبرد من جرّاء إطفاء الغطاء الكهربائي من جهتها. أحسّ إيغوشي الذي وجد الوضع مضحكاً أنه مجرّد من قوّته. تحسّس المنوّم الموضوع قرب سريره. كان محاصراً بين الفتاتين حتى أن يده فقدت أية حرية في التحرّك. بسط راحته فوق جبهة الفتاة البيضاء وتأمّل الأقراص المعتادة.

دمدم: «ماذا لو استغنيت عنها هذه الليلة؟». كان أكيداً أن الأقراص مادة سريعة المفعول نسبياً. فما هي إلاّ لحظات حتى يأتي النوم دون إبطاء. لأول مرة ساور إيغوشي هذا الشك: هل يبتلع الزبائن المسنّون جميعاً هذا المخدّر مطيعين تعليمات المضيفة؟ ولكن لو رفضوا النوم مستغنين عن المنوّم، ألا يضيفون بذلك فظاعة إلى فظاعة الشيخوخة؟ لم يشعر إيغوشي أنه صار بعد في عداد هؤلاء العجائز التاعسين. هذه المرّة أيضاً تناول المنوّم، وتذكّر حينها أنه عندما عبّر عن رغبته في أن يعطى هو أيضاً من المخدّر نفسه الذي يعطى للفتيات، أجابته المرأة: «هذا خطير على الرجال المسنّين». كان هذا كافياً كي لا يلحّ بعد الآن.

«الخطر»، كل الخطر في أن يموت وهو نائم، أليس كذلك؟ ولكن هذا المنزل أليس مكاناً مثالياً للموت بالنسبة لإيغوشي الذي لم يعد سوى رجل عجوز عاديّ جداً، وبصفته كذلك يحدث له أحياناً أن يسقط في فراغ الوحدة وقرف العزلة؟ أن يموت مثيراً الفضول، مسبّباً لنفسه السخرية، أليست هذه طريقة رائعة للانتهاء؟ سيكون ذلك بالتأكيد مفاجأة لكل من عرفوه. صعب عليه أن يتخيّل إلى أيّ حدّ يمكن أن تتأثّر عائلته. ولكن لنفرض أنه توفي مضطجعاً بين امرأتين في عزّ الصبا كهذه الليلة، ألن يكون هذا إشباعاً لأقصى رغباته في أواخر أيامه؟ لكن لا، هذه الأشياء لن تحصل هكذا. ستُنقل جثته كجثة العجوز فوكورا إلى نزل بائس للمياه الحارّة وسيقال بأنه توفي على

إثر جرعة كبيرة من الأقراص المنوّمة. وبما أن لا رسالة هناك لشرح الأسباب، ستنسب التهمة إذاً إلى يأس الشيخوخة، وتطوى القضية. تصوَّر منذ الآن الابتسامة الخفيفة تطفو على شفتي المضيفة.

«يا للأفكار الحمقاء! فلنترك التعاسة جانباً!».

ضحك إيغوشي دون أن ترنّ ضحكته بوضوح، بدأ المنوّم يؤثّر قليلاً فيه.

«هيّا، سأسحب تلك المرأة من سريرها وأرغمها على إعطائي من مخدّر الفتيات!». وبدا له من غير المعقول أن تستجيب لطلبه، وفوق ذلك أزعجته فكرة النهوض وهو على غير استعداد لأن يفعل ذلك. استلقى على ظهره وأحاط الفتاتين من عنقهما. أحد العنقين لينٌ، ناعم وعطر، والآخر قاسٍ ودبق. انبثق شيء ما في داخل العجوز واجتاحه. أخذ يتأمّل الستارة القرمزية ملتفتاً إلى اليمين وإلى الشمال.

«آه!».

ـ «آه! آه!»، صرخت الفتاة السوداء كأنّما لإجابته. أسندت يدها إلى صدر إيغوشي. هل هي تتألّم؟ انتزع إيغوشي ذراعه وأدار ظهره للفتاة السوداء، مدّها باتّجاه الفتاة البيضاء ووضعها في انحناءة خاصرتها، ثم أطبق عينيه.

«آخر امرأة في حياتي! آخر امرأة، فلنفترض ذلك...»، قال

في نفسه. «لكن من هي فعلاً المرأة الأولى في حياتي؟». سحرت الفكرة رأسه بدل أن تتعبه.

المرأة الأولى: «إنها أمّي». عبرت هذه الفكرة رأسه بسرعة خاطفة. «لا يمكن أن تكون إلاّ أمّي!». فرض هذا الجواب غير المتوقّع نفسه كحقيقة بديهية. «أمّي، هل يسعني القول إنها كانت أول امرأة بالنسبة لي؟». وفضلاً عن ذلك، كيف لم تظهر هذه الحقيقة بغتة في أعماق فؤاده إلاّ وهو في السابعة والستين من العمر ممدّداً بين فتاتين عاريتين؟ أهذا تدنيس لها أم إعجاب بها؟ فتح إيغوشي عينيه ليبدّد هذا الكابوس ورمش أجفانه عدّة مرّات. كان مفعول المنوّم قد بدأ يسري في جسده فلم يتوصّل إلى أن يعي بوضوح. أحسّ بألم غير حادّ في رأسه. جهد لأن يطرد وهو شبه نائم صورة أمّه، وتنهّد واضعاً راحتيه على نهدي الفتاتين يميناً وشمالاً. أحد النهدين كان ناعماً والآخر رطباً. وأغلق العجوز عينيه.

كانت أمّه قد توفيت ذات ليلة في الشتاء وهو في السابعة عشرة من عمره. كان هو وأبوه، يمسك كل واحد منهما بيد من يديها. لم يكن على ذراعي المريضة التي تشرف على الموت إثر هزال مزمن سوى العظم، ومع ذلك، كانت تتشبّث بيده بقوّة شديدة حتى صارت أصابعه تؤلمه. صعدت برودة أصابعها حتى كتف الإبن. انسحبت الممرّضة التي دلكت لها قدميها بصمت. ربّما لأنها أرادت الاتصال بالطبيب.

«يوشيو! يوشيو!...»، نادت المرأة بصوت متقطّع. فهم إيغوشي في الحال، وداعب برقّة صدرها اللاهث. تقيّأت في اللحظة ذاتها كمية كبيرة من الدم فيما انهمر الدم من أنفها أيضاً. كانت تختنق: من المستحيل التقاط الدم بالشاش أو بالمنشفة الموضوعة قرب السرير.

«يوشيو! امسحه بكمّك! قال والده. سيدتي الممرّضة! سيدتي الممرِّضة! أحضري وعاء ماء من فضلك!... أجل، نوبة جديدة! وأحضري أيضاً وسادة جديدة ومبذلاً وشرشفاً!...»

كان طبيعياً أن تمثل أمام إيغوشي العجوز صورة أمّه المريضة حين فكّر: «أول امرأة في حياتي هي أمّي!»

«آه!» كان يرى الستارة القرمزية التي تلفّ الغرفة وقد اكتست بلون الدم. عبثاً حاول إغماض عينيه، شعر بأن ذلك اللون الأحمر المتعذّر محوه ماثل في أعماق عينيه. وفوق ذلك، كان رأسه يدور تحت تأثير المنوّم وراحتاه لا تزالان متكئتين على النهدين الفتيين. كانت مقاومة عقله ووجدانه في شبه انقباض. وأحسّ بدموع تتراكم في زوايا عينيه.

«كيف أمكنني أن أفكّر أن أمّي هي المرأة الأولى في حياتي وفي هذا المكان بالذات؟» تساءل متحيّراً. وبما أنه قرّر أن أمّه هي المرأة الأولى في حياته، فقد وجد نفسه غير قادر منذ الآن على تذكّر الشريكات في المتعة اللواتي تبعنها. على كلّ حال، زوجته هي المرأة الأولى الجديرة بهذه الصفة. هذا هو الصحيح. ولكن

زوجته العجوز التي زوّجت بناتها الثلاث تنام وحيدة في هذه الليلة الشتائية. أو هي لم تنم بعد على الأرجح. هناك حيث هي، لا صخب للأمواج وقد تكون برودة الليل أشدّ من هنا. تساءل العجوز ماذا يكون النهدان اللذان يحسّهما في راحتيه بالنسبة له، أيكونان شيئاً مستمراً في الحياة بدم حارّ عندما يصبح هو نفسه ميتاً؟ ولكن ماذا يكونان بالنسبة له؟ استجمع ما تبقّى له من قوّة ليشدّ عليهما. لم تتحرّك الفتاتان. عندما كان إيغوشي قد لامس نهدي أمّه وهي على فراش الموت، وجدهما متهدّلين بالطبع. لا يتذكّر أي شيء بشأنهما الآن. كل ما يتذكّره أنه كان يبحث عن نهدي أمّه الشابة إبّان نومه في أيام الطفولة.

شعر بأن النعاس يغشاه أكثر فأكثر، فسحب يديه عن نهدي الفتاتين كي يأخذ وضعية مريحة أكثر في النوم. استدار ناحية الفتاة السوداء لأن رائحتها نفّاذة. صفعه نَفَسها الأجشّ في وجهه. كانت شفتاها منفرجتين.

«انظر، ما أظرف هذه السنّ التي نبتت مائلة!» حاول العجوز أن يمسكها بإصبعه. كانت سنّاً طاحنة، إنما صغيرة. لو أن نَفَس الفتاة لم يصفعه لقبّل موضع هذه السن. وبما أن نَفَسها الثقيل منعه من النوم، فقد استدار. ومع ذلك كان يحسّ به دائماً على رقبته. لم تكن تشخر، بل كان تنفّسها صاخباً. غار رأس إيغوشي في رقبته قدر المستطاع. قرّب جبينه من خدّ الفتاة البيضاء. كانت تقطّب وجهها وتبدو مع ذلك أنها تبتسم. ضايقه

الجلد الدبق الملتصق بظهره. كان بارداً ولزجاً. ولكن العجوز ما لبث أن غرق في النوم.

ألأنه كان محاصراً بين الفتاتين، أحسَّ بصعوبة النوم؟ على أية حال، هاجمته سلسلة من الكوابيس لا رابط بينها سوى أنها أحلام جنسية مقرفة. في نهاية المطاف، حين كان إيغوشي راجعاً من رحلة زواجه، وجد بيته مغموراً بأزهار شبيهة بالأضاليا الحمراء ترتجف في الريح. تردَّد في الدخول مشكِّكاً في أن يكون هذا بيته.

«ها قد رجعت، لماذا لا تزال مسمّراً هناك؟ قالت أمّه، التي يفترض أنها مائتة، عندما خرجت لاستقباله. هل عروسك الشابة منزعجة؟

- أمّي ما هذه الأزهار؟

- آه! هذه... قالت الأم دون أن تنفعل. أسرعا بالدخول إذاً.

- أجل! كنت أتساءل هل هذا بيتنا. لم يكن مفروضاً أن أخطىء، ولكن مع وجود هذه الأزهار كلها...».

في الغرفة أعدّت مأدبة فخمة لاستقبال العريسين الشابين. بعد أن صافحت الأم العروس الشابة، دخلت إلى المطبخ لتسخِّن الحساء. كانت هناك أيضاً رائحة سمك مقلي. خرج إيغوشي إلى الرواق متأمِّلاً الأزهار، ولحقت به زوجته.

قالت: آه! يا للأزهار الجميلة!

ـ أجل! لم يرد إخافة المرأة الشابة، فامتنع عن القول: «لم تكن هناك زهور مماثلة في البيت...» وشخص ببصره إلى زهرة أكبر من الأخريات فتساقطت قطرة حمراء من بتلاتها.

«آه!»

فتح إيغوشي عينيه. هزَّ رأسه ولكنه كان دائخاً من النوم. استدار ناحية الفتاة السوداء فوجد جسدها بارداً. ارتعش إيغوشي. لم تعد تتنفَّس. وضع يده على قلبها. لم يعد يخفق. نهض في وثبة واحدة. خانته قدماه فسقط. دخل إلى الغرفة المجاورة وفرائصه ترتعد. التفت من حوله فوجد جرس الاستدعاء قرب «التوكونوما». جمع كل ما لديه من قوة في إصبعه وكبس طويلاً على الزر. سمع وقع أقدام على الدرج.

«هل أكون قد خنقت الفتاة وهي نائمة دون علم مني؟»

رجع العجوز إلى الغرفة زاحفاً على قدميه ويديه ليرى عنق الفتاة.

«هل حدث لك شيء؟ قالت المضيفة عند دخولها.

ـ هذه الصغيرة ميتة! اصطكَّ حنكا إيغوشي. فركت المرأة عينيها وقالت دون أن ترتعش:

ـ ميتة؟ ولماذا تكون ميتة!

ـ بل هي ميتة، أؤكِّد لك. لم تعد تتنفَّس ونبضها متوقِّف.

امتقع وجه المرأة هذه المرة وركعت أمام سريلا الفتاة السوداء.

«لا بدّ أنها ميّتة!»

كشفت المرأة الغطاء عن الفتاة وتفحّصتها.

ـ سيدي، هل فعلت لها شيئاً؟

ـ لم أفعل لها شيئاً!

ـ إنها ليست ميتة! لا تقلق يا سيدي... قالت المرأة وهي تحاول جاهدة أن تبقى باردة وهادئة الأعصاب.

ـ إنها ميتة بالتأكيد! أحضري لها طبيباً!

ـ ...

ـ ماذا جرّعتموها؟ هناك أجسام لا تحتمل مثل هذا النوع من المخدّر.

ـ لا تخشى شيئاً يا سيدي. لن يزعجك أحد في أيّ حال من الأحوال... لن نقرّ باسمك أبداً...

ـ ولكنها ميتة!

ـ لا أعتقد أنها ميتة!

ـ كم الساعة الآن؟

ـ جاوزت الرابعة.

أخذت المرأة الفتاة العارية بذراعيها ثم نهضت وهي تترنّح.

«سأساعدك!

ـ لا تتعب نفسك. يوجد رجل في الأسفل...

ـ لا بدّ وأن هذه الصغيرة ثقيلة الوزن.

ـ لا تـزعـج نفسـك من أجـل لا شيء. أيهـا السيـد اذهب واسترح بهدوء. ما زالت لديك واحدة».

ـ مـا زالت لديـك واحدة! وصـدمت الطريقـة التي ألقت بها المرأة عبارتها على ذلك العجوز كما لم يصدمـه أي شيء في حياتـه من قبـل. هذا صحيـح فعلاً. عـلى فراش الغـرفـة المجـاورة لا زالت لديه الفتاة البيضاء.

«والآن قولي لي، كيف سأتمكّن من النوم؟ قال ذلك والغضب في لهجته ممزوج بـالجبن والخوف. يجـدر بي أن أرحل بعـد الذي حدث!

ـ دعـك من هذا. إذا ذهبت في مثـل هـذه السـاعـة ستـوقظ شكوكاً غير مجدية.
ـ كيف تريدين أن أنام؟
ـ سأحضر لك دواء.

أحـدثت المـرأة ضجّـة عـلى الـدرج كـما لـو أنها تجرّ الفتـاة السوداء. لاحظ العجوز الآن أن البرد يتفشّى في كل جسمه تحت المبذل القطني. صعدت المرأة من جديد وفي يدها قرص أبيض.

ـ إليك هذا! تنـاولـه من فضلك وستنـام هنيئـاً حتى صبـاح الغد.

ـ آه! حسنـاً. فتح العجـوز بـاب الغـرفـة المجـاورة. كـانت الأغـطية التي رمـاها بعجلة قبـل قليل قـد بقيت في الحـالـة التي

تركها فيها، وأيضاً الجسد العاري للفتاة البيضاء ممدَّداً بكل جماله وبهائه.

«آه!» هتف إيغوشي وهو يتأمّلها.

سمع هديـر سيّارة. أتت دون شـك لتنقل الفتـاة السوداء ثم ابتعدت. هل يتم نقلها إلى النزل المشبوه حيث تخلَّصوا من جثـة العجوز فوكورا؟

